

روايات مصرية للجيب

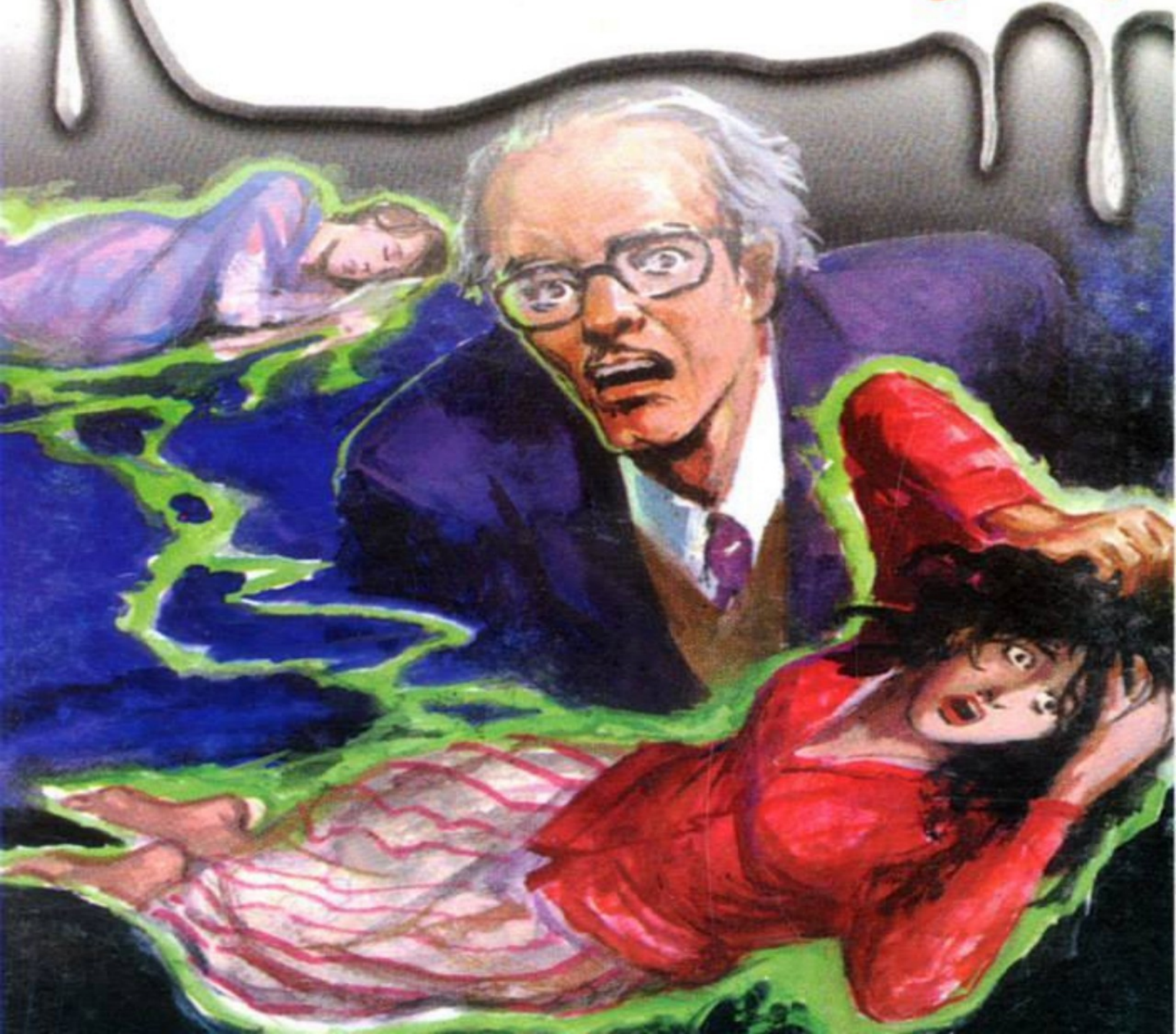
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



أسطورة التوءمين

39

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network 2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

د. «د. أحمد خالد توفيق»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

في هذا الكتيب نستكمل حكاية التوعمين (نجلاء) و(ناهد)، واللتين صار لاسمهما ذات رنين (هنا) و(شيرين) أو (ريا) و(سكينة) بالنسبة لمسمعي..

ولمن لم يقرءوا الكتيب السابق أقول: أرجو أن تقرأوا الكتيب السابق، لأن التلخيص يفسد كل شيء..

فقط نضع بعض النقاط على الحروف فنذكركم أن التوعمين قد اكتشفتا وجود تطابق شعوري تام بينهما.. إن الألم الذي تشعر به إحداهما يزور الأخرى في الوقت ذاته في المكان ذاته..

عرفنا كذلك أن (نجلاء) تمثل الفتاة
متوسطة الجمال - يمنعنا التهذيب من
وصفها بالقبح - الذكية إلى حدٍ ما.. وهي
أول من لاحظ هذه الظاهرة وقررت - لشدة
ذكائها - الاستعانة بي أنا (رفعت إسماعيل)
صديق خالها..

أما (ناهد) فتمثل الفتاة باهرة الجمال -
يمنعنا التهذيب من الصراخ انبهارًا بها -
فارغة الرأس، ثقيلة الظل.. تزوجت مبكرًا
وأنجبت، لكنّها ما زالت تعاني مطاردة
الحب العنيد السمج لأفاق يدعى (صلاح)،
لم يقبل قط حقيقة كونها تزوجت..

إن مضايقات (صلاح) لا تنتهي.. وقد
أحال حياة الأسرة الهادئة إلى جحيم
حقيقي.. والكارثة هنا هي أنه يعرف الآن

سر الأختين الصغير، ويعرف أن الطريقة
المثلى لإيذاء (ناهد) هي عن طريق إيذاء
(نجلاء).. إن (ناهد) محاصرة بحراسة لا
تهمد.. أما (نجلاء) فلا..

ولأسباب يطول شرحها؛ وجدت نفسي
متورطاً حتى الساقين في مستنقع العلاقات
الأسرية المعقدة المتشابكة لهذه الأسرة..
ووجدت نفسي أمام علاقة المقت والتشكك
العجيبة بين الأختين، اللتين تحمل كل
منهما حقاً وحسداً لا بأس به نحو
الأخرى..

لهذا ظلت علامات الاستفهام تتراقص
أمامي..

إن أشياء غير عادية ستحدث..
أشعر بهذا..

أعرفه جيدًا.....

الفصل الأول:

مجرد تمهيد..
ولعل الفصل
الثاني أكثر حيوية

ونعود لجلستنا الصامتة في غرفة
الجلوس، نتبادل صوت الأنفاس.. ونصغي
لدقات الساعة المعلقة في الركن..
دوى صوت أذان الفجر من مسجد قريب،
ففطنت لأول مرة إلى أنني لم أنم.. بل
تذكرت - فجأة - أن لي منزلاً لم أعد إليه
هذه الليلة.. غريب هذا الحماس مني أنا
الذي كفت منذ سبعة وتسعين عاماً عن
الحماس لأي شيء.. يبدو أنني ما زلت
شاباً إلى حدٍ ما..

قال د. (محمد) وهو يشمر عن ذراعيه
وبصوت مرهق ناعس:

- «هل تريد دخول الحمام يا (رفعت)؟»
قلت في غيظ:

- «أنا هنا منذ الثامنة مساء.. ولو لم أكن
بحاجة للحمام لكان معنى هذا إصابتي
بفشل كلوي وانسداد معوي ما!»

هزّ يده كأنما ينصحني بان أخرس، وقال:
- «حسن.. حسن.. لم أقارف إثماً إذ
سألتك.. تفضل إلى الحمام..»

وناولني شيشبًا زلقًا مبتلاً كي أذهب به..
صوت الصمت، وصوت الأذان القادم من
بعيد.. وإرهاق السهر.. كل هذا يحمل مذاقًا
خاصًا.. مذاق الشجن.. الأحران التي
اختزنتها الأجيال تركزت ونقت، وهو ذا

إكسیرھا یتلخص فی لحظات شفافة هي
السمو ذاته..



بعءما فرغنا من الصلاة، أعد لنا
(محمود) مزيدًا من أكواب الشاي الأسود
لأسكبها على الأريكة، وجاءت لنا الأم
بصينية عليها طبق من البيض المقلي
الغارق في السمن، ومعه رغيفان أو
ثلاثة.. ولسان حالها يقول: كلوا، ولكم
أمقت أن أراكم تفعلون! ويل للوعد الذي
يجرؤ على هذا..

ولم نجرؤ طبعًا..

بعد دقائق من الصمت، سألني (محمود):

- «حتى هذه اللحظة لم أفهم ما تنتوي عمله..»

قلت وأنا أرشف ما بقي من الشاي في كوبي:

- «إن (نجلاء) نائمة الآن.. عرفت هذا لأن (ناهد) نائمة.. كل ما بوسعنا هو أن ننتظر حتى تبدأ في الصراخ ثانية، وعندها نعرف يقيناً أن (صلاح) عاد يمارس هوايته..»

- «وبعدها؟»

مددت يدي إلى المحقن الزجاجي الذي وضعته معداً على المنضدة:

- «بعدها أعطي (ناهد) هذه الجرعة من (البارالدهايد)..»

ازدادت عيناه حولًا دلالة على اهتمامه
بالأمر، وسألني:

- «وما دور هذا الـ (باردلاید)؟»

- «(بارالدهاید).. إنه سيجعلها تغرق في

نعاس عميق مريب..»

- «ترید ألا تشعر (نجلاء) بالتعذيب؟»

- «بل أريد ما هو أكثر.. إن (صلاح) لا

يفقه شيئًا في الطب، ولسوف يجد أن

ضحيته سقطت فاقدة النطق والوعي..

بعبارة أخرى سيشعر كأنها ماتت.. أو

توشك على الموت..»

- «وهذا ما يريده...»

- «بل هذا آخر ما يريده...»

ووضعت المحقن بحذر في مكانه،

ونظرت إلى (محمد شاهين) الذي لا يتابع

حرفًا مما نقول.. كان رأسه قد سقط على صدره وراح يغط كحافلة الأرياف..

قلت لـ (محمود) بعد ما تتأبّت مرّتين:

- «إننا نلعب على نقطة واهية.. لكنني -

بما أعرفه عن طبائع البشر - أعتقد أننا

نستطيع الاعتماد عليها: (صلاح) ليس

بقاتل.. ثم إنّه يحبّ (ناهد) ولن يتركها

تموت.. وهو - مثلنا - يتوقع أن موت

(نجلاء) يقود بالضرورة إلى موت

(ناهد).. ماذا يفعل عندئذٍ؟ إن مصير

فكرتي يتوقف على تصرفه وقتها..

سيصيبه الذعر.. هذا مؤكد.. بعدها سيفر

تاركًا الجمل بما حمل، أو يطلب العون

الطبي مجازفًا بافتضاح سرّه.. وهما

احتمالان يزيدان من فرصتنا..»

حك رأسه كأنما يرغب الفكرة على
الدخول، ثم قال:

- «وماذا لو أصابه الذعر أكثر من
اللازم؟ ماذا لو قرر أن يحرق ضحيته
ليخفي آثار الجريمة؟ كلهم يفعل ذلك..»

- «لا أعتقد.. إن رهاني الوحيد هنا هو
على فهمي لطباع البشر.. (صلاح) لا يقتل
أبدًا، ولو قتل فلن يبدأ بـ (ناهد) التي هي
(نجلاء)..»

ثنى ساقيه تحته طلبًا لبعض الراحة..
والحقيقة هي أن جلستنا هذه جعلتني أشعر
بأن ظهري قضيب سكة حديدية، وأردافي
تزن أطنانًا حتى لتغوص في الأريكة أميالًا
وأميالًا.. قال:

- «وما هدف مغامرته هذه إن لم يكن القتل؟ ماذا سيفعل بـ (نجلاء) بعد ما يمل أساليب التعذيب كلها؟ إنها تعرف عنه كل شيء الآن..»
قلت متأوها:

- «آي! ظهري! أعتقد أن كل ما يحدث وسيلة للضغط علينا.. وفي النهاية سيقدم عرضه المجنون.. طلقوا (ناهد) وزوجوها لي.. وإلا ستموت ألماً مع (نجلاء) في اللحظة ذاتها!»

- «ويظن الأمر بهذه السهولة؟»
- «لم لا؟ هو غير ناضج اجتماعياً.. مجرد طفل في برائن (الهي) التي لا تهدن المجتمع ولا تتنازل عن أية رغبة..»

وبالنسبة له أنت معتد أثيم.. وغد يجب أن
يقتل ضربًا بالأحذية..»

- «أشكرك على دقة تعبيرك..»

- «لهذا أعتقد وأومن وأثق وأجزم بأن
(صلاح) لن يتمادى.. تجربتنا هذه ستحطم
حاجز ثقته، ليقف في العراء يرتجف بردًا
ورعبًا.. ولهذا أيضًا أرى أن...»

عندها دوّت صرخة (ناهد) المريعة.....

«أرى أن...» ماذا؟ حقًا لم أعد أتذكر..
إن النساء قاتلات قصص محترفات،
والمعجزة الحقيقية هي أن تستكمل جملة
واحدة تامة حين تكون امرأة في الجوار..
قلت له وأنا أتأمل المحقن:

- «هذه هي لحظة الحقيقة كما يقول

الإنجليز.. ستريحها هذه الجرعة من آلامها

والأم أختها..»

ودلفت معه إلى الحجرة حيث كانت
المرأة المذعورة المولولة.. رفعت الملاءة،
وقلت لها شيئاً عن الحقنة التي ستريحها،
وقالت هي شيئاً عن حاجتها إلى أي شيء
ولو كان سمّاً، ثم بعد دقائق غابت في
نعاس عميق.. لو كانت (نجلاء) تمر الآن
بهذا النعاس الفجائي، فلا بد أن دعر
خاطفها شديد.. لو لم أكن طبيباً لحسبتها
ميتة حقاً..

تحسست نبضها ليطمئن قلبي، وأنا أشم
رائحة (البارالدهايد) المقيئة في هواء
الغرفة.. ثم أشرت إلى الزوج كي يغادر
الحجرة..

- «ليس بوسعنا الآن سوى الانتظار..»



لكم يثير مللي أن أعرف أنني على صواب في كل مرة، فلا توجد مرة واحدة يخيب فيها رأيي أو يتضح الى أنني حمار..

في العاشرة صباحًا كان هناك رجل شرطة على الباب، وكان مرآه كافيًا كي يبعث خيالات المشرحة والمستشفيات في عقولنا جميعًا.. وكان بدوره متوترًا قلقًا، أخبرنا أن (نجلاء) موجودة الآن في المستشفى لكنه لا يعرف تفاصيل أكثر..

وهرعنا - أنا والزوج و(محمد شاهين) - إلى المستشفى المذكور، لنجد (نجلاء)

هناك في أسوأ حال ممكن.. الكدمات تملأ
وجهها.. والخدوش في كل صوب..
بالإضافة إلى أنها كانت في حالة من
الوعي تذكرك بالغيوبة..

وعرفنا أن شرطة النجدة تلقت مكالمة
هاتفية من مجهول - مذعور كذلك -
يخبرهم بأن هناك فتاة في حالة سيئة، في
بناية لم يُستكمل بناؤها بعد في (حلوان)،
وناشدهم بالإسراع لأنها توشك على الموت
إن لم تكن ماتت بعد.. وبالطبع وضع
السماعة قبل أن يسأله المساعد عن
بياناته..

وانتقل رجال الشرطة إلى هناك ليجدوا
أن البناية خالية تقريبًا.. لا يوجد أمامها
خفير يدخن المعسل، ولا ينبح في مدخلها

كلب أجرب المفترض أنه مخيف.. صعدوا في درجات السلم الطوبية إلى الطابق الرابع.. وأخيرًا وجدوا فتاة مقيدة ملقاة جوار الجدار، وكانت تشي بأثار معاملة سيئة حقًا.. بالإضافة لهذا وجدوا حشية مفروشة على الأرض الترايبية، وبعض أطعمة، ولفافات تبغ كثيرة تركها من خطفها حوله..

كانوا هذه المرّة بحاجة إلى سيارة إسعاف، وحين وصلت هذه بعد ساعتين كالعادة - مما يدلك على لهفتهم الشديدة - نقلت الفتاة إلى المستشفى، وقال الأطباء إنها على ما يرام جسديًا.. فقط ضربت بشدة وعنف غير معتادين.. المشكلة الوحيدة هي أنها مصدومة نفسيًا وعاطفيًا،

وبالتالي صار استجوابها مستحيلًا في هذه
الآونة.. ويبدو - كما قال الأطباء - أنها
تحت تأثير مخدر ما...

كان هذا كل شيء، وقد أجبنا عن أسئلة
المحضر بعدد لا بأس به من الإجابات كلها
على غرار (لا أعرف.. لست متأكدًا.. هذا
محتمل).. لكنّ الزوج أصر على ذكر اسم
(صلاح) في المحضر.. فهو يتهمه بكل
شيء، ويطالب رجال الشرطة بالقبض
عليه في أقرب وقت..

وحين فرغنا، قال لي د. (محمد شاهين):
- «كانت نظريتك صائبة برغم كل
شيء.. إن أعصاب الفتى لم تتحمل أن
يراها تموت أمامه، وربما بسببه.. لكنّ هل
تعتقد أن الخطر ما زال قائمًا؟»

قلت وأنا أرمق (نجلاء) الغافية، بينما
خراطيم المحاليل تتشابك حولها كغابة من
الخطر:

- «مع (صلاح) أو من دونه؛ سيظل
الخطر قائماً.. إن هاتين الفتاتين مرغمتان
على أن تتقاسما مشاعرهما، والأدهى أنهما
تكرهان بعضهما.. ربما إلى حد أن تؤذي
الواحدة نفسها لتؤذي الأخرى.. هذا وضع
غير طبيعي.. وكل الأوضاع غير الطبيعية
خطرة ما لم يثبت العكس...



إعداد.. ولعل
الفصل الثالث
يناسبك أكثر..

الفصل الثاني:

في الأيام التالية دنونا برفق من عالم
(نجلاء) الشائك، ولم يحاول واحد منا أن
يذكرها بما هو أكثر من اللازم.. كانت
تتحسن ببطء، لكنّ ذكرى ما حدث ظلت
منطقة محرمة بالنسبة لنا، وتعاهدنا - دون
أن نقولها - على أن نتركها هي تتكلم أولاً..
فإن لم تفعل فلن يبدأ أحدنا..

كانت الشرطة متلهفة على سماع اتهامها
الواضح الصريح لـ (صلاح)، لكنّ الفتاة
ظلت تتحاشى هذا المنعطف في كلامها..

وأدركت أنه هدها كثيرًا، حتى صار
بالنسبة لها كائنًا يفوق القدرات البشرية..
كضميرها.. كالأخ الأكبر الذي يراقبنا في
قصة (جورج أرويل)... لو تكلمت أكثر
فسوف يعرف بابا (صلاح) ويذيقك الويل..
الويل الذي لا يقدر أي (محمود) أو
(رفعت) أو (محمد شاهين) أو أي رجل
شرطة على منعه..

ومن نافلة القول هنا أن أقول إن (صلاح)
اختفى.. تلاشى تمامًا.. بحثوا عنه في كل
مكان فلم يجدوه...

وظل السؤال معلقًا: كيف اختطفها؟ كيف
نقلها إلى (حلوان) على مرمى أحجار من
دار أختها؟ كيف ولماذا اختار هذه البناية
المهجورة؟ ماذا كان يريد بالضبط؟

وهكذا دارت الأيام كما يحدث في أفلام
السينما المبكرة: تطايرت الأوراق من على
تقويم الحائط، حتى مر شهر كامل..



كنت أمشي في أروقة إدارة الجامعة،
باحثًا عن موظف يسبب لي مزيدًا من
المشاكل، ويقول لي إن أوراقني لن تتم أبدًا
لهذا السبب أو ذاك، حين قابلته.. من؟ د.
(محمد شاهين) طبعًا.. فمن الطبيعي أنني
لا أعيش لدى تلك الأسرة، والحقيقة هي
أنني لم ألقه منذ عشرة أيام...
بعد التحيات المبتلة بالعرق سألته عن
(ناهد) و(نجلاء)، فقال لي باسمًا:

- «ماذا؟ ألم تعرف؟ إن (ناهد) قد سافرت مع زوجها إلى (أسوان)، حيث سيعمل في السد العالي.. لقد كان يتهيب هذه الخطوة منذ زمن.. أنت تعرف كراهية المصري للترحال، ويوم تركت قريتي لأدرس في (القاهرة)، ودعتني أمي بالعويل على محطة القطار.. لكنّ (محمود) لم يعد يملك خيارًا آخر.. إن (أسوان) تبعده عن ذلك الوغد الطليق.. ثم لا تنس أنه مهندس قبل أن يكون زوج (ناهد)..»

قمت بابتلاع المعلومة ومحاولة هضمها.. لا بأس.. لكنهم - الحمقى - ينسون أن (نجلاء) ما زالت هنا، وكان عليهم ترحيل الأختين إلى (سويسرا) لو كانوا يطلبون الأمان حقًا..

- قلت له وأنا أطوي أوراقي:
- «هذا جميل.. لكنّ ماذا عن (نجلاء)؟
إنها ما زالت متاحة على ما أظن..»
- نظرة غريبة التمعت في عينيه.. نظرة
أثارت هلعي.. وبلزوجة قال:
- «ما رأيك في (نجلاء)؟»
دون حذر قلت:
- «فتاة طيبة ذكية تمت تربيتها جيدًا..»
- «وسيدة بيت من الطراز الأول!»
- «إنها ليست جميلة.. لكنّ وجهها مريح
يسر النفس..»
- «جداً!» - واحمر وجهه كعرف ديك،
وأردف:
- «نحن نتفق على الخطوط الأساسية
إذن!»

- «أية خطوط؟»

نظر حوله ليتأكد من عدم وجود مراقبين،
ثم تأبط ذراعي بذراعه الدسمة المكتنزة،
واقْتادني ليسند ظهري إلى الحائط، كما
يفعل رجال الشرطة في الأفلام الأمريكية
عندما يعتقلون لص المتاجر:

- «(رفعت).. أنت أخي وتعرف جيدًا كم
أحب مصلحتك.. إن المثل يقول: (اخْطُب
لابنتك ولا تخطُب لابنك).. و(نجلاء)
عزيزة أثيرة إلى نفسي.. وأراني أبخسها
حقها لو سمحت لأي وغد آخر.. أ... لأي
رجل آخر أن يظفر بها!»

كنت أنا نموذجًا مجسدًا للغباء والبلاهة..
وفي النهاية تمكنت من تشكيل الأحرف في
شكل جملة:

- «هل تمزح؟»

- «لا مزاح في الحلال.. إن (نجلاء) بحاجة إلى رجل يحميها، وأنت رجل حقيقي.. يعلم الله أنك رجل حقيقي..»
مسحت قطرات لعابه من على وجهي،
وعدت أصيح:

- «أنا غير قادر على حماية نفسي من بعوضة، وتطالبني بحماية هذه الفتاة التي تتحمل آلامها وآلام أختها معًا؟ ثم.. هي في عمر ابنتي.. ولو تركت أمي - رحمها الله - تزوجني (شفيفة) ابنة العمدة وأنا في سن العشرين؛ لكانت عندي طفلة في عمر (نجلاء).. (محمد).. إما أنك جننت، وإما أن تصلب سرايين المخ قد.....»

هنا - فقط - تقلص وجهه، وأدركت كم
العواطف الذي يكتمه طيلة هذا الوقت.. لقد
كان عملياً على وشك البكاء:

- «إنني بمثابة أب لها الآن.. إن أباه لم
يعد في حال تسمح ب... وأصارحك أن
المسئولية ترهقني... ترهقني...»

- «لهذا تلقيها فوق كتف أول حمار تلقاه،
مثلاً حاول (أطلس) أن يلقي بالكرة
الأرضية فوق كتفي (هرقل)؟»

من جديد بش وجهه:
- «أنا لست (أطلس).. لكنك أفضل من
(هرقل)..»

- «اسمع يا (محمد).. أنا الآن شيخ فان..
ربما أبدو في العقد الخامس لكن قلبي
وصحتي يؤهلاني لأن أكون في العقد

العاشر.. ولا أجد نفسي - بعد كل ما رأيت
في حياتي - صالحًا لشيءٍ سوى أن أسعل،
وأطلب كوب ماء، ثم أنطق بالشهادتين
وأموت.. وتحدثني عن الزواج بعد كل
هذا؟!»

بدا عليه القنوط، وقال وهو يُطلق
سراحي:

- «لا تقل شيئًا الآن.. فكر ثم سأسألك
ثانية..»

قررت تغيير الموضوع الشائك.. سألته
وأنا أطوى أوراقى للمرة الثالثة:

- «هل ستعود (نجلاء) للعمل؟»

- «بالطبع لا.. إن ما حدث لها حدث

وهي في مكتب ذلك المحامي..»

- «إذن عندي عمل لا بأس به لها..»

- «حقًا؟ وما هو؟»



(مختار نجيب).. اسم له رنين قوي يوحي
بمحام بارع أو طبيب نابه.. وكان صاحب
هذا الاسم من بلدة مجاورة لبلدتي في
(الشرقية)، وهو من أسرة طيبة على قدر
لا بأس به من الثراء، وقد صار محامياً
استعنت به في مشكلة الأرض إياها التي
أثارت خلافاً بين أمي وأخي.. لم يكن
شخصاً رديئاً لكنّ صوته العالي - إلى
درجة سماع همسه حين يكون في بر
السلم وأنا في شقتي - جعلني زاهداً في

توطيد علاقتي به، وجعلني أفر من كل مناسبة تقرب بيننا..

لكني - بفضل الله تعالى طبعًا - استطعت أن أعالج ابنه من نوع نادر من أنواع فقر الدم، وعلى طريقة زعماء (الماфия) صار مدينًا لي بخدمة لا يمكن أن يرفضها، ولي أن أسأله إياها في أية لحظة..

كان (مختار) سليل اللسان، غير سهل الهضم، يقع مكتبه في أكثر شوارع (القاهرة) ازدحامًا، والبناية نفسها ذات أهمية أمنية خاصة، لذا هي مدججة برجال الشرطة المتتكرين منهم والسافرين.. باختصار: كان مكتب هذا الرجل هو أكثر الأماكن أمنًا لصبية مذعورة يطاردها

مجنون، خاصة إذا كانت هذه الصبية
محامية شابة..

وهكذا ترونني مع (نجلاء) في المصعد،
نتّجه للقاء محامينا الأشهر الذي سيعقد لها
اختبارًا سريعًا لا بد أن تنجح فيه.. تحملت
الكثير من الصراخ والضحكات المجلجلة
التي يطوح فيها رأسه للوراء وذقنه للأمام،
ثم التأكيد على أن الفتاة بخير، ولسوف
تكون كابنته أو أكثر..

كنت مطمئنًا لهذا، وزاد من اطمئناني ذلك
المحامي الشاب الخجول الذي جلس يسترق
نظرات أكثر خجلًا لـ (نجلاء).. كان اسمه
(كمال)، وأصابه نظيفة من الخواتم
تمامًا.. إن هذه لحظة من اللحظات النادرة

التي يصير فيها المستقبل واضحًا تمامًا
وحتميًا..

وابتسمت خلسة.. وتخيلت المحامية الشابة
المبتدئة المذعورة في ردهات المحكمة
الرهيبة، لا تعرف شيئًا سوى ما ينصحها
به (كمال)، فلو كانت هي (النداهة) أو كان
هو مسخ (فرانكنشتاين) نفسه، فلا يهم..
الحب سيولد حتمًا.. ولسوف تمضي حياة
الفتاة في مسار طبيعي لا بأس به أبدًا..

ودعتها كأني أم اطمأنت على فلذة كبدها،
وعدت أمارس حياتي التي هي دائمًا
حياتي..

لكن القضية لم تنته بعد.. ولم تمت
المشكلة..

ظلت تطل برأسها خارج التابوت في
إصرار غريب..



هياكل تنظيمية



كنت مطمئناً لهذا ، وزاد من اطمئناني ذلك المحامي الشاب
الخبول الذي يسترق نظرات أكثر خجلاً لـ (نجلاء) ..

لا أذكر بالضبط.. ربما بعد هذا بثلاثة أشهر..

أذكر فقط أنني كنت في مكتبي أقرأ بعض المراجع الطبية، حين.....



الفصل الثالث:

إطئاب كثير ويمكن أن تبدأ بالفصل الرابع..

دق جرس الهاتف في مكثبي، فرفعت السماعه لأعرف الكارثة التالية.. لماذا كارثة؟ لأن هذا الجرس الأحق لا يدق إلا لهذا السبب:

- «آلو؟»

كان هذا صوتًا جهوريًا يمكن سماعه من دون هاتف، فقلت:

- «(مختار)؟ ماذا حدث؟»

- «الفتاة.. (نجلاء).. إنها في حالة صحية

مريية..»

- «هذا لن يكون غريباً على..»
- «لقد طلبت منا الاتصال بك حالاً..
رفضت نطلب الإسعاف.. بالله عليك أسرع
يا (رفعت)، فقد نلنا من صراخها ما
يكفي..»

- «ولكن.....»
- «أنا بانتظارك» (كليك!)..
وبغباء رحت أرمق السماعاة في يدي.. لا
مفر ولا منجى لي إذن.. إنها لقادرة على
العثور على في أي مكان وأية لحظة،
وكلما شعرت (ناهد) بصداع أو آلام في
ظهرها.. والمشكلة هي عجزني التام عن
التنصل.. ألم أكن أنا الذي زرع تلك
المصيبة في مكتب (مختار)؟

وهكذا ارتديت سترتي، وهرعت إلى
سيارتي.. سيكون الوصول إلى مكتب
(مختار) والعتور على مكان للتوقف
مستحيلًا في ساعة كهذه.. لكنّ ما باليد
حيلة..



وتحسست خصرها حيث رقدت على
المقعد الجلدي، لا تكف عن الأنين..
فأطلقت صرخة عارمة وانفجرت باكية..
كان الأمر واضحًا.. مغص كلوي شديد
إلى درجة أنه جعلها تصرخ، وهي من
الطراز الصموت الخجول الذي يصرخ
عن طريق عض شفتيه..

قال لي (مختار) وهو يشعل لفافة تبغ
الثالثة:

- «يجب أن تأخذها معك! لا يمكن تركها
هنا..»

وهتف (كمال) في هستيريا وهو يقرب
كوب ماء من شفتيها:

- «افعل شيئاً يا دكتور! لو كانت بحاجة
إلى دمي فخذوه!»

وأنا أمقت هذا النوع من التطوع العاطفي
الذي لم يطلبه أحد..

من تحدث عن دم هنا؟ قلت وأنا أنهضه:
- «لسنا في أحد أفلام (توجو مزراحي) يا
بني.. إن خير ما تقدمه لها هو أن تكف
عن صب السوائل في فمها، فخير ما
سيحدث هو أن تقيء فوق ثيابك..»

ولـ (مختار) قلت وأنا أشخبط كلمات على ورقة:

- «أمّا عنك، فرغبتك في الخلاص منها حتى لا تموت في مكتبك وتجلب لك المصائب، رغبتك هذه لا تهمني البتة.. قل لأحد العمال أن يجلب لنا هذه الأدوية حالاً..»

بدا متردداً فأخرجت ورقة عملة دستتها في يده، متعمدا الإهانة.. لكنه كان عملياً أكثر من اللازم، فاكتفى بأخذ المال والورقة والخروج من الغرفة.. لهذا ينجح الناس ويثرون بينما أفشل أنا..

جاء الدواء، فافرغت ما استطعت منه في عروق الفتاة، وبدا لي أنها تتحسن حقاً.. نظرت لساعتي فوجدت أنها الثالثة بعد

الظهر، ولا بد أن هناك مشهدًا مأساويًا
ممثلاً يحدث في (أسوان) الآن..
- «هل أنت بخير الآن يا (نجلاء)؟»
بصعوبة فتحت شفتيها اللتين التصقتا
بالقشور، وقالت:

- «ن.. نعم.. شكرًا لك..»
- «إذن تعالي ببطء.. سأوصلك للبيت..»
دون كلمة أخرى أعاد لي (مختار)
عشرين قرشًا بقيت من مالي بعد شراء
الدواء، وقال في كياسة إنه يرحب بأن تأخذ
الفتاة إجازة لمدة يومين.. أمّا (كمال)
فعانقني في حرارة ليغرق وجهي بالدموع
والعرق.. إنه عاشق متحمس حقًا، ولا بد
أنه يغني لها الكثير من أغاني (عبد الحليم
حافظ) بصوته الأجلش المشروخ..

وفي سيارتي سألتها عن رقم هاتف
(ناهد) في (أسوان)، فلا بد من إخطار
الزوج بالأمر.

كانت منهكة ملبدة الفكر نوعًا من تأثير
الدواء - الذي يحوي بعض المخدر طبعًا -
لكنّها أملت الرقم ببطء شديد، وكررته أنا
كي استظهره، ووصلنا لدارها فساعدتها
على الصعود، وبالطبع قبلت بأفزع
عاصفة من الهستيريا والجزع.. وكان على
أن أؤكد لهم أنني لست السبب فيما حدث..
في النهاية نزلت الدرجات المهشمة،
واتجهت إلى السنترال المجاور كي أتصل
بـ (أسوان).. وفي تلك الأيام كان الاتصال
بمحافظة أخرى يستغرق نفس الوقت
اللازم للسفر إليها بقطار الدرجة الثالثة..

لا بد أنني ازددت شيخوخة، حين سمعت صوت الموظف يهدر في مكبر الصوت بالرقم الذي طلبته، وهرعت إلى الكابينة لأغلقها عليّ، وأسمع صوت (محمود) يتساءل عن المتكلم..

- «إنّه أنا يا (باشمهندس)..» (رفعت إسماعيل)..»

- «أعوذ بالله! هل توفي أبو (ناهد)؟»
- «للأسف لا.. أردت أن أطمئنك على (نجلاء).. لقد انتهت نوبة المغص الكلوي، ولا بد أن (ناهد) بخير بدورها الآن..»

ساد الصمت هنيهة، ثم غمغم في بلاهة:
- «مغص؟ إن (ناهد) على ما يرام.. أعدت لنا الغداء وتناولته معي، ثم هي الآن تغسل الأطباق في المطبخ.. لحظة.. ها هي

ذي قادمة! لا شيء يا (ناهد).. لا شيء..
لم يمت أحد.. إنه ذلك الطبيب يؤكد أنك
تتألمين من المغص الكلوي.. حتى لو كنت
بخير فلا تصدقي ذلك لأن الأطباء لا
يخطئون أبدًا..»

وسمعت صوتها تغغم بشيء ما، ثم جاء
صوته:

- «على كل حال أشكرك يا دكتور.. أبلغ
السلام الجميع من لديك، وقل لهم أن
يتصلوا بنا..»
ووضع السماعة..

غادرت الكابينة غارقًا في العرق.. عرق
القيظ وعرق الارتباك..

إذن (ناهد) لم تمر بالألم ذاته.. للمرة
الأولى منذ بدأت الظاهرة، أجدها تتصرف

بشكل منفصل عن شقيقتها.

ما هو التفسير؟

التفسير الأول: هو أن الظاهرة انتهت..
كان لها زمن معين ثم استنفدت أسبابها
ومواردها، وانتهت.. كما يفتك بنا فيروس
(الإنفلونزا) لأيام، ثم يقرر فجأة أن ينهي
دورة حياته..

التفسير الثاني: هو أن بعد المسافة لعب
دورًا في إضعاف الظاهرة، وهو تفسير
يمكن قبوله إذا افترضنا أن موجات أثرية
معينة تنتقل من واحدة للأخرى، ولا يمكن
قبوله إذا تبيننا نظرية (ساعة الحياة) التي
تحدثنا عنها في الكتيب السابق (الفصل
التاسع)..

الطريقة الوحيدة للاستقراء هي أن نجرب
إحداث ألم لدى (نجلاء)، وبشكل متكرر،
فإذا حدث توارد شعوري كان هذا دليلاً
على وجود خطأ ما.. وإن لم يحدث كان
علينا أن نقرب الأختين ونعيد التجربة..
بهذا يمكننا قبول أحد التفسيرين أو
رفضهما معاً..



عدت إلى الشقة لأطمئن على (نجلاء) من
جديد... كانت نائمة بذلك الإنهاك الذي يلي
المغص الكلوي، ويجعل تمييز المريض
من الملاءة عسيراً حقاً..

سألني الأب عن صحة (ناهد)، وهو
حدس غريب لأنني لم أقل لأحد إنني
سأتصل بها.. والأغرب هو أن الرجل يعي
ما يحدث حوله جيدًا، وكنت أظنه لا يفهم
ما يحدث بوضوح..

- «بخير... بخير...»

وقربت مقعدي من فراش (نجلاء)،
وكانت المرة الأولى التي أجد فيها وقتًا
لأتأمل الغرفة الضيقة التي شهدت صبا
الشقيقتين.. كانت مطلية بالجير الذي تشقق
في عدة مواضع، والسقف يشي بتسرب
ماء حدث في وقت ما.. وعلى الجدار
صور مقصوصة من مجلات فنية عليها
نجوم الساعة: (عبد الحليم حافظ) - (سعاد
حسني).. ثم كتابات على الجدار بعضها

كلمات من أغان، وبعضها دعاء بالنجاح..
وكانت خزانة الثياب مفتوحة تكشف عن
بعض (البلوزات) الرخيصة التي - حتمًا -
تشاجرت الفتاتان كثيرًا بسببها يومًا ما..
(ناهد) هانم قد ارتدت بلوزتي الجديدة دون
أن تطلب إذني.. (نجلاء) سرقت دبابيس
شعري.. أين قميص نومي الأبيض؟!
وابتسمت، وتمنيت ألا يرى أحد
ابتسامتي.. لقد رأيت في حياتي أفخم
القصور في (سكوتلندا)، وأرقى الفنادق في
(جنيف)، لكنّ هذا الجو المصري الحميم
ما زال يثير حنينًا شديدًا في أعماقي..
فتحت عينيها ببطء، ورمشت قليلًا..
فسالتها بصوت رقيق:
- «(نجلاء).. هل أنت بخير الآن؟»

- «نـ... نعم...»

- «لدى سؤال واحد.. لو أجبت عليه سأرحل ويمكنك العودة للنوم..»
- «قله..»

- «هل حدثت لك آلام غير مبررة منذ سافرت (ناهد) إلى (أسوان)؟»
رمشت من جديد، بعينين حمراوين زائغتين كأنما تتذكر.. ثم قالت:
- «لا.. مرة واحدة أو مرتين.. لقد تحسن الوضع كثيرًا..»

- «هذا هو كل شيء.. شكرًا..»
ونهضت، ودعوت الأب كي يقودني لباب الشقة.. يمكن القول إن المسافة هي العامل الأساسي الذي أدى الشفاء هاتين المزعتين.. إن اتصالهما شبيه بموجات

الراديو التي تضعف عندما تمر السيارة
تحت نفق...

ولأسباب مماثلة لا يستطيع مذياعي التقاط
نشرة" أخبار (الإسكيمو) لو كانت لديهم
نشرة أخبار...

كل شيء واضح متسق، وأعتقد أنني
أستطيع إغلاق هذا الملف للأبد، ووضعه
فوق أحد رفوف ذاكرتي كي يغطي الغبار
وخيوط العنكبوت.. المهم - فحسب - ألا
أنسى أنه هناك.....



الفصل الرابع:

كثير من الهراء..
ولا أدري ما يمنع
من الانتقال للفصل
الخامس..

نتشرف بدعوتكم يوم
الخميس ١١/٧ في تمام
الساعة السابعة مساءً.
لحضور حفل زفاف

الآنسة /نجلاء عبد
الجواد
كريمة الأستاذ: عبد الجواد
خليفة

المدير العام بالضرائب سابقاً
إلى
الأستاذ/كمال أبو قورة
نجل المرحوم / محمود أبو قورة
وذلك في منزل العروس.
والعاقبة عندكم في المسرات.

تأملت الدعوة التي أحضرها لي د. (محمد شاهين) في رضا.. كل شيء كما توقعته بالضبط، وها هي الدعوة المطبوعة بمزيج من اللونين الذهبي والفضي مع رسم ساذج لعريس وعروس يتطلعان للسعادة في طريق مفروش بالورود، يقود إلى عربة ذات خيول مطهمة!

يضحكني دومًا هذا التصور الركيك
للسعادة، ولكني راضٍ برغم كل شيء.. إن
(نجلاء) فتاة طيبة طاهرة، ومن حقها أن
تمارس حياة طبيعية..

هل أذهب؟ بالطبع.. أنا لا أطيق حفلات
الزفاف، لكني لا أطيق قضاء ليلة الخميس
وحددي في داري، وليست لدي خطة
محددة.. ثم إن الفرار من (محمد شاهين)
مستحيل على كل حال..



وهكذا - مرتديًا البذلة الكحلية التي تجعلني
فاتنًا - توجهت إلى دار (نجلاء)، وكانت
الأفراح في تلك الأيام تعقد دائمًا على

سطح البناية، ولم تكن هناك تلك المظاهر
العجيبة كأندية الخمسة نجوم، والتورته
متعددة الطوابق، ورقص العريس
والعروس في حفل زفافهما.. ربما كنت
متخلفاً، لكني لا أستسيغ هذه المظاهر
الحالية على الإطلاق..

كان الشارع كله مجتمعاً هناك، والإضاءة
تزيد الحر حرارة، وثمة جارة بدينة قررت
أن تلعب دور الراقصة، مما لم يساعد على
إضفاء مزيد من البهجة..

وبطرف عيني لمحت باقة ورود عليها
بطاقة (مختار نجيب) المحامي..

هناك كانت (نجلاء) في الكوشة إلى يمين
عريسها، وقد حرص من زينها على أن
يبدو مجهوده واضحاً، لقد حولها إلى أقبح

عروس مولد يمكن أن تراها. أمّا (كمال)
فكان يرتدي بذلة سكرية اللون، ولا يكف
عن العرق والتظاهر بالمرح..

محاذرا أن تضربني الراقصة البدينة
بكوعها - وفي هذا هلاكي حتماً - اجتزت
المكان لأهنئ العروسين، ودنا مصوّر
أصلع كي يلتقط لنا صورة باسمه طلبها
العريس بإلحاح.

واستطعت أن أرى (ناهد) - وطفلها الذي
تعلم المشي الآن - تشق طريقها، وتطلق
زغرودة قوية تلفت بها الأنظار، أمّا
(محمود) فكان يتشاجر مع أحدهم.. وكل
الناس يتشاجرون في حفلات الزفاف لسبب
لا افهمه حقاً.. ولاحظت بصمات شمس
(أسوان) الحارقة على بشرته.

كان المفرد الوحيد لي هو ركن المكان..
تسللت إلى هناك، وأعطيت ظهري لكل
هذا الزحام، ورحت أرمق الظلام النقي
المخيّم على المنطقة، وانتابتنى رجفة في
عروقي.. هذا الشعور المتفرد العتيد.. حين
تدير ظهرك للصخب، وتقف وحدك في
الظلام شاعرًا بلذة الشجن.. لذة الحزن.. أو
ما يسميه الإنجليز بـ (زهرة الحائط)..

الشارع صامت ينعكس عليه ضوء
شاحب من الزينة المعلقة على السطح،
والشارع خال لأن كل سكانه يقفون الآن
ورائي..

استطعت أن أرى ذلك الخيال لأحد المارة
يمشي الهويني في الطريق وقد بدا شاردًا..

شاردًا إلى درجة لا تسمح بها هذه
الضوضاء..

نظر لأعلى نظرة عابرة، ثم واصل
المسير، لكنّ هذا كان كافيًا لي..
هذا (صلاح)! برغم الظلام والمسافة
عرفته..

(صلاح) يحوم حول حفل الزفاف،
فلماذا؟

لا اعتقد انه سيقتم الحفل ليطلق
الرصاص على (ناهد).. الحياة ليست بهذه
الميلودرامية التي نراها في السينما.. هنا
أكثر خطورة من الرصاص..

معناه أنه لم ينس قط، ولم يتعلم قط..
معناه أنه قريب، يعرف كل شيء عن هذه
الأسرة، وثمة شيء يختمر في ذهنه طيلة

الوقت..

هن أصرخ وألفت نظر الموجودين؟ في
الغالب لن أفيد بشيء من هذا سوى إفساد
ليلة العمر على (نجلاء).. (صلاح)
سيختفي كما يختفي الفأر في مقلب قمامة،
بمجرد أن يدرك أننا لاحظناه...

رأيت أن الحل الأكثر صوابًا هو أن أخبر
(محمود).. ناديته، واختليت به بعيدًا عن
السامعين، وأخبرته همسنا أن (صلاح)
هنا! إنه يحوم حول البناية...

- «الوغد! لا بد أنه ينتوي عملاً أحمق!»
- «لا أظن.. إنه يبحث عن وسيلة يرتكب
بها عملاً أحمق، لكنه لم يستقر على رأي
بعد..»

- «وماذا ننتظر؟ هل نلحق به..»

- «كنت أفكر في الشيء ذاته.. لكني -
أصارحك - لست من هواة أن أتلقى
اللكمات في أنفي أو الركلات في بطني،
كما أنني - بالتأكيد - لا أحب طعنات المدى
في طحالي.. ولهذا - أصارحك - أشعر
بالخوف من التعرض لهذا الشيء
المخبول..»

احمرّ وجهه وازدادت عيناه حولًا:
- «دعه يحاول شيئًا كهذا، ولسوف
يجمعون أشلاءه بالملقط..»
وكور قبضته وانطلق، فرحت أركض
خلفه محاولاً أن أبدو على طبيعتي..
وفي الشارع كان الظلام دامسًا..
الانعكاسات الشاحبة لأضواء الزينة هي
الشيء الوحيد الذي يجعلنا نميز ما حولنا..

- «فلتتفرق، وعلى من يراه أن ينذر
الآخر..»

- «هل تقترح صيحة وعل (الإستبس)
في موسم التزاوج؟»

نظر لي في الظلام، فلم ألمح ضحكة
التهكم على وجهه تعبيرًا عن ثقل ظلي،
واتجه إلى اليمين فاتجهت إلى اليسار..

لم امش سوى عشرين خطوة حتى
وجدته.. كان خارجًا من زقاق جانبي، وفي
يده لفافة تبغ غير مشتعلة.. لقد تبدل كثيرًا
حقًا، فلم يعد يطيل شعر رأسه، وأطال
لحيته بطريقة غريبة، إذ أوصلها بسالفه،
حتى صار أقرب لصور كتب التاريخ التي
تمثل الإمبراطور (غليوم الأول) أو
(غاريبالدي) - لا أدري من بالضبط -

وعلى عينيه عوينات بلا إطار.. لكنّ من
المستحيل أن يرى المرء هذا العود مرّتين.
دنا مني، وباشمئزاز لا داعي له دسّ لفافة
التبغ في شفتيه، وقال:
- «تسمح تولع لي؟»

بسبب اللفافة التي شوّهت حروفه.. وهنا
فطنت إلى الحقيقة الغريبة: (صلاح) لا
يعرفني ولا يذكرني.. لم يرني سوى دقيقة
واحدة في المستشفى، ولربما لم يلحظني
أكثر، أمّا أنا فأذكره جيّدًا بالطبع.. لقد
رأيت ممثلًا سينمائيًا شهيرًا ذات مرة في
ميدان (التحرير)، ورآني هو أيضًا.. لكنّ
من طبيعة الأشياء أنني ظللت أذكر كل
تفاصيل ثيابه، بينما هو نسيني بالتأكيد بعد
دقيقة واحدة..

وكان (صلاح) هو بطل هذا الفيلم.. يلعب دور (الشرير) أو (الفيلين) ببراعة غير عادية.. لهذا نذكره جميعًا حتى لو لم يذكرنا هو..

أشعلت له لفافة تبغ به بيد مرتجفة قليلًا، ورحت أفكر: هل أصرخ الآن؟ هل أنقض عليه وليكن ما يكون؟

في النهاية وجدت حلًا مرضيًا يعطله بعض الوقت.. رحلت أسأله عن موضع محل شهير في (شبرا)، وكان بعيدًا عن هذا المكان يحتاج إلى كثير من الشرح.. وبطرف عيني نظرت إلى الناحية الأخرى من الطريق.. أين (محمود)؟

كان (صلاح) يشير بذراعه ليوضح شرحه أكثر...

- «هل تعرف تلك الصيدلية؟ تعرفها؟
ليكن.. ستفارقها وتتجه لليمين وتمشي دون
توقف حتى تصل إلى سينما (التحرير)..
سينما ماذا؟»

- «(التحرير)..»

- «لا بأس.. ومن هناك.....»

كان خيال (محمود) قادمًا.. وفي اللحظة
التالية وثبت علي (صلاح) واحتضنته
بذراعي بطريقة جعلتني بعيدًا عن متناول
قبضتيه.. لن يهرب..

- «ماذا؟ هل جنت؟»

ولكن (محمود) فهم على الفور، واندفع ركضًا إلى حيث كان جسدانا يلتحمان، وسمعت صوت اللكمة الأولى كما كان يحدث في أفلام (فريد شوقي).. المؤثرات الصوتية لألواح الخشب المتضاربة، و(حميدو) يقهر اللصوص جميعًا..

سقطت على الأرض بين الأقدام، فقد جرحت وأنا أثبت عويناتي على أنفي.. ورأيت الهول ذاته في صراع الرجلين.. لم يكن صراع غضب أو صراع تحد، بل هو صراع قتل.. أحد الرجلين يحاول قتل الآخر..



وفى اللحظة التالية وثبت على (صلاح) واحتضنته بذراعى
بطريقة جعلتنى بعيداً عن متناول قبضته ..

كان (صلاح) تحت تأثير المفاجأة وعدم الفهم، و(محمود) كان قويًا بحق.. لهذا سقط (صلاح) أرضًا، ولم يكن الرفق بعدو ساقط من أخلاق (محمود) اليوم، لذا راح يركل الجسد في أكثر المواضع إيذاء له.. وهنا تنبهت للمرة الأولى.. لقد صرنا بصدد عملية قتل..

- «(محمود)! يكفيه هذا ولنطلب الشرطة!»

لكنّ سعار الجنون تسلط على المهندس، زالت كل مساحيق الحضارة ليتحول إلى رجل كهف يفتك برجل آخر من أجل السيطرة على العشيرة..

- «(محمود)!»

وجريت لأجذبه من ذراعته، لكنه انتزعها
ووثب في الهواء ليسقط فوق.. أي!! فوق
ضلوع (صلاح) ..

وقف يلهث كثور بري أنهكة الهنود على
حين جثوت أنا جوار الفتى الممدد على
الأرض، وتحسست نبض عنقه.. لا؟ نبض
معصمه؟ لا؟ أشعلت عود ثقاب وتفحصت
حدقة عينيه.. لا؟

نهضت زاحف الساقين، وبصوت
متحشرج أعلنتها:
- «لقد مات!»

- «إنه يتظاهر بذلك.. سيفيق حالاً..»
- «بل هو ميت فعلاً، ولو كنت أنا عاجزاً
عن تمييز الموت بعد ثلاثين عاماً من
الطب، فأنا في مشكلة حقيقية..»

هنا راحت السكره وجاءت الفكرة.. وقف
حائراً يتأمل (ما أوكته يداه وما نفخه فوه)،
وللحظة حسبته على وشك البكاء..

- «والعمل؟»

هتف:

- «لا عمل سوى إبلاغ الشرطة..»

- «هل تمزح؟»

وتلفت حوله يرمق الشارع الخالي
المظلم، ثم هتف:

- «إن أحداً لم يرنا ولم يسمعنا وسط هذه
الضوضاء.. لن يعرف أحد أبداً ما
حدث..»

ابتسمت في شفقة لسذاجته، وقلت:

- «أولاً: ليس هذا ديدني.. أنا لا أخالف
القانون، ولا أتهرب من مسئولية أخطائي..»

ثانيًا: من الحمق أن تحسب الشرطة لن تتعرف الجثة.. إن الفتى له سوابق كثيرة وبصماته عندهم، ومن السهل أن يعرفوا أنّ هذا (صلاح).. ولسوف يجدون أنه قتل على بعد خطوات من دار الفتاة التي كان يهددها..

وكل المدعويين للزفاف يمكنهم أن يؤكدوا أننا غادرنا الحفل في الساعة كذا، وقد بدت الخطورة على وجهينا.. لا يا (محمود).. لا تحاول إصلاح زلة بجريمة كاملة الأطراف..»

- «لقد انتهى مستقبلي.. ولربما كانت المشنقة هي.....»

- «لا أظن.. إن المحامين سيؤكدون أنك كنت تدافع عن نفسك وعن بيتك، وتاريخ

الفتى لا يترك شكًا في هذه المقولة..»
كان ما زال مترددًا، فجذبتَه من ذراعه
لنبحث عن أقرب جهاز هاتف..



لقد انتهينا - بشكل حاسم جذري - من
مشاكل (صلاح).. فهل هناك مصدر آخر
للمشاكل؟



الفصل الخامس:

إسهاب شديد..
وأرى أن تنتقل
إلى الفصل
السادس..

لم تطل التعقيدات لحسن الحظ، فأطلق
سراحي أنا بضمان وظيفتي، ولم يطل
الأمر بـ (محمود) كذلك لأن الجريمة
استوفت أركان الدفاع عن النفس..
لكن ما حدث سبب قلقًا هائلًا للجميع،
وبالطبع أفسد ليلة عمر (نجلاء) تمامًا، مما
يدلك بحق على قلة حظها في كل شيء..
قليلا تهن الفتيات اللائي يستطعن الفخر
بأن جريمة قتل ارتكبت في حفل زفافهن..

لقد عادت المياه الهادئة تتدفق تحت
الجسور، وبرغم كوني كارها للعنف زاهداً
فيه؛ فقد بدا لي أن ما حدث كان هو الحل
الوحيد.. إن بتر الذراع المصابة بالسرطان
لحل دموي عنيف، لكنه يظل الحل الوحيد
حقاً..



كان هذا صوت د. (محمد شاهين) في
الهاتف:

- «(رفعت).. لم اسمع صوتك منذ
شهرين..»

كدت أصارحه بأنني زاهد في كل ما
يجعلني أرى هذه الأسيرة ثانية.. اختطاف

وقتل، وصورة المرأة التي تلثم ثعباناً،
وشاي ينسكب على الأرائك.. كل هذا أقوى
مني...

- «كنت مشغولاً ببعض الشيء يا
(محمد)..»

- «ألن تزور (نجلاء) في دارها؟»

- «وهل هذا ضروري؟»

- «هي مريضتك وابنتك.. ثم إن
المجاملة....»

هنا وجدت أنّ هذه المهمة ضرورية.. في
الآونة الأخيرة بدأت أتحول إلى حيوان
غير اجتماعي يعشق (الأوكسجين) ويمقت
(ثاني أكسيد الكربون)، ورحت أحاول
جاهداً ألا أنزلق إلى الدرك الذي رح
أنزلق إليه.. لهذا صرت أرغم نفسي على

حضور حفلات الزفاف، وزيارة المرضى،
وأداء واجبات العزاء..

- «ليكن يا (محمد).. متى وأين؟»

- «في الثامنة مساءً.. نفس البيت..»

- «أحقًا؟ هي لم؟»

- «إن (كمال) مازال يتحسس طريقة

المهني.. وأبوها وأُمها بحاجة إلى رعاية..

وأخوها ما زال طفلًا..»

- «ألم تنجب بعد؟»

راح يضحك حتى انقطعت أنفاسه، وقال:

- «(رفعت)! أنت لست بهذه السذاجة..

لقد تزوجا منذ شهرين.. أنت تعلم أن

الحمل يستغرق تسعة أشهر..»

غلى الدم في عروقي.. هذا الرجل لن

يكف عن السذاجة، ولن يفهم مزاحي أبدًا..

ولديه الشجاعة كي يخبر طبيبًا بحقيقة أن
مدة الحمل تسعة أشهر..
- «ليكن يا (محمد).. أراك هناك في
الثامنة..»



قرعنا الجرس، ففتحت لنا (نجلاء)
الباب.. خيل الى أنها صارت أجمل إلى حدٍ
ما، ثم قررت أنّ هذا يعود إلى الإضاءة
القادمة من اليسار، والتي كان (رمبرانت)
يعشقها.. إنها تجعل الأشياء أجمل دومًا¹..
كانت الشقة كما هي، فيما عدا أنهم أعادوا
طلاءها بشكل غير دقيق، وكان هناك
(أنترية) جديد له رائحة (دمياط)، وجهاز

تلفزيون صغير موضوع فوق (بوفيه)
مليء بالخاروف..

إن هي إلا دقيقة حتى برز لنا (كمال)،
وكان قد تجاوز مرحلة العريس الذي يقابل
الضيوف بالروب، إلى مرحلة مقابلتهم
بمنامة ذات الخطوط الخضراء الطولية،
ثم جاء الأب مترنحاً منهكاً، وجاءت الأم
هاشة باشة تحمل صحيفة عليها كوبان
مليئان بمشروب وردي مخيف..

تبادلنا التهاني والشكر، ولم ينبس أحدا
بحرف عما كان، ولم نذكر ما فات لأنّه -
ببساطة - قد مات.. فقط وضعت مظروف
(النقوطة) إياه في مكان ظاهر..

سألت (نجلاء) عن أخبار جديدة مفرحة
على غرار القىء صباحًا، فاحمرّ وجهها
خجلًا وأغمضت عينيها أن نعم..

نظرت لها نظرة متسائلة فهمت معناها
على الفور، فأغمضت عينيها من جديد،
هذه المرّة بمعنى (لا).. لا لم تعان (ناهد)
أعراضًا مماثلة في (أسوان)...

لقد شفيت الأختان تمامًا كما هو واضح..
حملت (نجلاء) الصحيفة بكوبيها
الفارغين، فانتحي (كمال) ليجلس
بجوارى، وربت على ركبتي بيده مرددًا
عبارات من نوع (آنستنا يا دكتور)، ثم
همس وعلى وجهه علامات الجدّة:

- «هل يمكن أن أنفرد بك في الشرفة
لبضع دقائق؟»

وهي اللحظة التي أخشاها.. لحظة أن يطلب من ألقاه أن ينفرد بي، ثم يبدأ في وصف مشكلة حياته المأساوية: غازات البطن أو الإسهال أو الدوار إذا ما نهض من الفراش بسرعة.. ثم لا يقتنع بأي اقتراح أقدمه...

أسلمت أمري لله وتبعته إلى الشرفة الضيقة ذات السور الخفيض، الذي يهدد بسقوط واحد منا في أي لحظة.. وحاولت جاهداً أن أمنع حزم الثوم المعلقة هناك من خدش صلعتي، وأزحت بقدمي دراجة أطفال مكسورة بلا عجلات لا بد أن (أخناتون) كان يلعب بها جوار أمّه (تي).. قلت له بعد ما طال الصمت:

- «اهنئك على ولى العهد القادم..»

- «عقبى لك!»

بدت لي الكلمة عجيبة، لكني تجاهلتها،
وعدت أسأله:

- «هل أجرت اختبارًا للحمل؟»

- «لا.. لكنّ الأمور واضحة، وعلى كل
حال لم أطلب الانفراد بك لهذا.....»
- «إذن؟»

ابتلع ريقه باحثًا عن كلمات ثم قال
بصعوبة:

- «إن (نجلاء) في حالة غير طبيعية..
أعنى.. ليست مجنونة حتمًا لكنّ البعض قد
يصل الاستنتاجات غريبة لو رأى ما تقوله
وما تفعله أحيانًا.. إنها لا تشعر بشيء،
وفي غاية السعادة.. لكنّ أحدًا لم يخبرني
من قبل بـ.....»

نظرت إلى الشارع الذي صبغة المساء
بلونه الأزرق الأنيق، وقلت:
- «مفهوم.. مفهوم.. وأنت تشعر بأنك
خدعت!»

- «لا.. أنت لا تفهمني..»
وتذكرت ما خطر لي من قبل.. أن من لا
يعرف ولا يفهم الرابطة الشعورية بين
الأختين يمكنه - دون عسر - أن يتهمهما
بالجنون.. لكنّ لماذا لم تصارحه (نجلاء)
بالأمر من قبل؟

أجاب على تساؤلي بأسرع مما توقعت:
- «لست أتكلم عن مشاعر (ناهد) التي
تنتقل لأختها.. بل أتحدث عن شبح
(صلاح) الذي يطاردها في كل صوب،

فهي لا تنفرد بنفسها في المطبخ أو الحمام
إلا وتبدأ في الصراخ..»
تصلب شعر رأسي المتبقي على الجانبين،
وقد أثار كلامه اهتمامي:

- «شبح (صلاح)؟»

- «نعم.. ذلك الفتى الذي ما انفك يلاحق
أختها.. إنها تراه في كل مكان وتقول إنه
ينظر لها نظرات ثابتة مزعجة.. ثم
يتلاشي ما إن يلحق بها أحد..»

- «وتقول إن (نجلاء) سعيدة برغم
هذا؟!»

- «وهذا هو الغريب.. إنها تصرخ
وتولول ثم تنسى الأمر برمته بعدها،
وتضحك وتمرح.. كأن ما حدث حدث
لواحدة أخرى..»

بالنسبة لي كان الأمر واضحًا.. هذا هو ما يميز التفاعل الهستيري الذي يوشك أن يكون مقصورًا على النساء².. الهستيريا هي أصلًا هروب من ضغط نفسي شديد لشخصية غير ناضجة، وقد يصل هذا التفاعل إلى أقصى صورته التي تذكرنا بالدكتور (جيكل) والمسز (هايد)، حين تسيطر شخصيّة من شخصيتين يملكهما المريض وتحرك قياده دون أن يعرف ذلك.. أمّا الصورة الأخرى فتأخذ شكل صداع هستيري.. عمى هستيري.. شلل هستيري..

إن الشلل أو العمى عرضان مخيفان يسببان ذعر أي مريض حقيقي، لكنّ مريض الهستيريا يفاجئنا بحالة عجيبة من

اللامبالاة.. تصوّر فتاة في العشرين من
عمرها قد أصابها شلل نصفي، وبرغم هذا
تبدو مسرورة أو خالية البال.. هذه نقطة
من نقاط عديدة يلاحظها الطبيب، وتضيف
وزناً إلى عبارته النهائية التي يعلنها بثقة:
لا يوجد سبب عضوي للشلل..

هذا الشلل هستيري يحتاج إلى مختص
بالمراض النفسية..

قال لي إن (نجلاء) سعيدة برغم
أعراضها المخيفة، وهذا يوضح دون شك
أنها رؤي هستيرية.. لم تكن تجربة
الاختطاف مريحة بالطبع، ولم يترك لها
(صلاح) أية ذكرى باسمه..

قلت له وأنا أراجع عن السور كي لا
أسقط:

- «كل هذا متوقع بالتأكيد.. ولن يدهشني أبداً.. إن ما عاشته لم يكن بالضبط أمراً سهلاً..»

- «إذن ترى أن أتناسى الأمر؟»

- «بلا شك.. إن الحل الوحيد هو أن تذهب بها إلى أحد الأطباء النفسيين، ولدى د. (محمد إبراهيم) صديقي.. لسوف يُطلق على حالة (نجلاء) اسمًا لاتينيًا مكونًا من عشرين حرفًا على الأقل، وهو مجهود لا بأس به يستحق أجره عليه طبعاً..»
هزّ رأسه، وطقق بلسانه:

- «لا لا.. كله إلا هذا!»

وكان هذا طبيعيًا، فهو من الناس العاديين
- رجال الشارع لو سمحت لي - الذين يضعون الأمراض النفسية كلها في سلة

واحدة اسمها (الجنون)، ومعه يغدو شرح
الفارق ما بين (العصاب) و(الدهان)
عسيرًا نوعًا...

قلت له وأنا أعود إلى الداخل:

- «ليكن.. يمكنني فهم وجهة نظرك، وإن
كنت لا أقبلها.. الحل الأخير في جعبتي هو
أن (تُبقي الوضع على ما هو عليه)،
وننتظر..»

وماذا بوسع أي منا أن يفعله سوى أن
ينتظر؟
فلننتظر.....





قال لى : إن (نجلاء) سعيدة برغم أعراضها الخفيفة ، وهذا يوضح
دون شك أنها رؤى هستيرية ..

الفصل السادس: ثروة طويلة ولن ألوم من ينتقل إلى الفصل السابع..

وانتظرنا.....
وكانت هناك أنباء سارة أبلغني بها د.
(محمد شاهين):
- «لـ (صلاح) أخ أسوأ منه وأكثر غلظة
وشرًا يدعي (ماهر).. وكان في (فرنسا)
منذ زمن منهمكًا في جمع العنب وتدخين
سجائر الـ (جولواز)، حتى طردته الشرطة
الفرنسية لأن إقامته انتهت..

«لقد عاد (ماهر) إلى (شبرا)، وعرف أن أخاه قد مات.. مات ضرباً بعد ما تلقى علة ساخنة.. والحق أنني أفهم لماذا اعتبر الفتى هذه الميتة مهينة لأخيه..»

«يقول الجيران إنه راح يولول كالهنود الحمر يهاجمون معسكر الجنرال (كاستر)- وهذا التشبيه من عندي طبعاً - وسقط مغشياً عليه، فراحوا يفركون أصابع قدميه ويدلكون صدره العريض بالبصل الذي طرحته إحدى الجارات من الشرفة..»

«ثم إنه أخيراً نهض، وراح يُطلق الأناشيد الجنائزية التي تتوعد بالويل ممن صنع هذا بأخيه.. إن دم أخي لن يذهب هباء.. لسوف يرى هؤلاء الأوغاد ولسوف يلبسون - جميعهم - الطرح..»

قلت لـ (محمد شاهين) وأنا أبتلع ريقى:
- «ألن ننتهي من أسرة (البلطجية) هذه
أبدًا؟ تلك المجموعة من الشخصيات
(السايكوباتية) التي تنسى تمامًا وجود
القانون..»

قال وهو يضحك في مرارة:
- «(سايكوباتية)؟ لو عرف (ماهر) هذا
أنك أسميته (سايكوباتي) لفتح بطنك
بمطواته دون مناقشة، وعلى كل حال
أعتقد أنك في دائرة التهديد على كل
حال..»

قلت بشجاعة حقيقة:
- «هذا سبب كاف كي لا أزور (شبرا)
لعدة قرون.. وماذا عن رجال الشرطة؟ ما
رأيهم في هذا؟»

- «إن الفتى يكتفي بإطلاق التهديدات، لكنه لم يفعل شيئاً، وليس ما في الضمائر جريمة يحاسب عليها القانون.. عليه أن يفعل أولاً..»

- «أي يبدأ بتهشيم راسي؟»

- «ربما.. لكني أخبرتك بهذا كي تكون حذراً... لقد أبلغت (محمود) بدوره، وهو حانق تماماً.. لكنه لم يخبر (ناهد) بسبب حملها..»

- «(ناهد) حامل؟!!»

- «وفي الشهر الرابع.. عقبى لك!»

ووضعت سماعة الهاتف حائراً:

- «(ناهد) حامل.. لماذا لم يقل أحد هذا قط؟ إذن يمكن القول إن الفتاتين حاملان في الفترة ذاتها، وهذا يسبب قدراً من

الخلط دون شك.. من هي صاحبة مشاعر
الغثيان و(الوحم) وما إلى ذلك؟»
وهنا راحت فكرة عجيبة بعض الشيء
تراودني..



- «هل أجرت اختبارا للحمل؟»
- «لا.. لكنّ الأمور واضحة، وعلى كل
حال أنا.....»



ومن جديد طلبت د. (محمد شاهين) في
داره:

- «د. (محمد).. هل أجرت (نجلاء)
اختبارًا للحمل؟»

- «لا.. لكن هل يوجد سبب آخر لإصابة
عروس بالغثيان والقيء صباحًا؟»
- «يا لكم من حمقى!»

ووضعت سماعة الهاتف، وقررت أن
أفعل أي شيء في حياتي سوى التفكير في
هاتين الأخنتين، وحكاياتهما المعقدة..

وفي الأيام التالية انهمكت تمامًا في قضية
الفتى الذي يحرك الأشياء عن بعد.. أنتم
تذكرونها طبعًا.. ماذا؟ لم أحكها بعد؟
حسن.. ذكروني بذلك في المرّات القادمة..

أقول إنني انهمكت تمامًا، وسافرت مرّتين
إلى قريتي على سبيل العودة إلى الجذور،
ثم عدت لأجد (محمد شاهين) ينتظرني وقد

احتقن وجهه البدين كأنه سيصاب بنزف
مخي..

- «النتيجة سالبة!»

- «نتيجة ماذا؟»

- «(نجلاء) طبعًا..»

- «(نجلاء) من؟»

هنا بدأت مخايل السكتة القلبية تبدو عليه،
وازدادت عيناه جحوظًا:

- «(نجلاء) ابنة اختي طبعًا.. ماذا

دهاك؟»

تناءبت، وفتحت أحد الخطابات الملقاة
على مكتبي، وقلت:

- «هذا شيء أعرفه منذ زمن.. أنتم

مجموعة حمقى لا أكثر.. ولقد مرّت

(نجلاء) بأعراض الحمل كلها قبل أن

تتزوج، لأن (ناهد) أختها شعرت بها،
وبرغم هذا لم يخطر لأحدكم أن يجري
اختبارًا لـ (نجلاء) الآن.. (الأمور
واضحة).. هذا كل ما قاله زوجها لي.. إن
التاريخ يكرر نفسه لأن الحمقى لم يصغوا
إليه في المرة الأولى..»

شرب كوبًا من الماء كعادة الموشكين
على الموت، وقال:

- «ليكن.. نحن حمقى.. لكنّ ما قولك إذا
كانت (ناهد) لم تشعر بشيء على
الإطلاق، واكتشفت حملها بالصدفة؟»
توقفت عن فتح الخطاب، وتصلبت:
- «ماذا تعني؟»

- «أنت سمعتني جيدًا!»

- «(ناهد) لم تعایش أعراض الحمل؟»

- «بالتأكيد!»

هنا أسقط في يدي.. من أين جاءت
(نجلاء) بهذه الأعراض الزائفة إذن؟ هناك
حالة نفسية يعرفها أطباء النساء جيدًا؛ حين
تنقطع الدورة الشهرية للمرأة، ويبدأ بطنها
في الانتفاخ، وتمر بأعراض الحمل
الهضمية المقيّنة، ثم يتضح أنه لا يوجد
حمل.. وأن انتفاخ بطنها هو غازات
احتبست لا شعوريًا في القولون.. ويسمى
هذا المرض بـ (الحمل الكاذب) أو - طلبًا
للرطانة - (سودو سايزس)..

المشكلة أنّ هذه الحالة تصيب - فقط -
النساء العقيمات المتقدمات في العمر،
واللاتي يتحرقن شوقًا للأمومة.. فما دور
(نجلاء) هنا؟!

بالطبع لا بد من البحث عن تفسير آخر
في مكان آخر..

نظرت بغباء إلى (محمد) وغمغت:
- «لا أعرف ما أقول.. حقًا لا أعرف ما
أقول..»



كان الأمر بحق يفوق قدرتي على الفهم..
ها هي ذي (نجلاء) تمارس (الكوفيد)
الذي تحدّثت عنه في الكتيب السابق، لكنه
(كوفيد) حقيقي وليس رمزيًا معنويًا كالذي
أعرفه.. الحامل الحقيقية في أتم صحة
وأوفر عافية، بينما أختها - غير الحامل -
لا تكف عن الأنين والغثيان..

والأغرب هو ما راح يحدث لـ (نجلاء)
في الأيام التالية.. تكررت ظاهرة الآلام
التي لا سبب لها، ومنها ما هو بسيط كالآلام
الكاحل أو الظهر، ومنها ما هو عنيف
مصحوب بكدمات..

كان تفسير هذا سهلاً في البداية: (ناهد)
قد استعادت ربطتها الشعورية بأختها برغم
بعد المسافة، وها هي ذي تمر - حتمًا -
بأوقات عصيبة..

لكن هذا التفسير تهاوى سريعاً إثر مكالمة
من د. (محمد شاهين) لـ (محمود) في
(أسوان).. اتضح على الفور أن (ناهد) لم
تشك من شيء، وخاصةً تلك الإصابة
العنيفة في الكتف التي تعوي (نجلاء) ألمًا
بسببها..

ما معنى هذا؟ هل جنت (نجلاء)؟
كان بوسعي أن أقول هذا، وأن أتهمها
بالكذب أو الجنون، لو لم أر موضع
الإصابة بعيني: كدمة زرقاء هائلة مخيفة
الشكل، وفي موضع عسير حقاً أن تحدثه
هي بنفسها.. إن الجروح التي يحدثها المرء
في جسده تكون دوماً في متناول يديه..
ثمة احتمال لا بأس به أن تكون (نجلاء)
قد ضربت بكتفها جسماً بارزاً - كمقبض
الباب مثلاً - متعمدة إحداث هذه الكدمة،
لكني لا أجد في هذه الفتاة الهشة قوة
كهذه.. إن للجسم البشري حدوده، حتى لو
كانت تسكنه روح مجنونة..

- «(نجلاء).. هل أنت متأكدة من أنّ هذه الإصابة لم تحدث، ثم نسيت أنت سببها؟»
- «يالاه من سؤال! هل يمكن لي أن أنسى إصابة كهذه؟»

- «هل يوجد نزف من أنفك أو لثتك؟»
- «لا..»

فقط في أمراض الدم النزفية - وسرطان الدم طبعًا - يمكن أن يجد المرء في جسده كدمات كبيرة كهذه بلا تفسير.. لكنّ - في تلك الحالات - لا يصاحب الكدمة ألم كالذي تشعر به.

وعلى كل حال، قمت باستبعاد هذا الاحتمال بعناية.. إن وظائف تجلط الدم وتخثره الخاصّة بها على ما يرام...



كان بوسعى أن أقول هذا ، وأن أتهمها بالكذب أو الجنون ، لو لم
أر موضع الإصابة بعينى : كلمة زرقاء هائلة مخيفة الشكل ..

وجاء حل المشكلة سريعًا، ولكن بعد ما
يئسنا من إيجاد تفسير.. جاء في خطاب من
(محمود) أرسله من (أسوان).. كان يحكي
عن شمس (أسوان) الدافئة والسد العالي..
إلخ.. إلخ.. ثم حكى لنا - أعني لأقارب
(ناهد) - عن الحادث الرهيب الذي كاد
يفتك بـ (ناهد) لولا أن سلم الله..

لقد كانت تعبر الشارع شاردة الذهن، حين
اصطدم بها (حنطور) مسرع، فسقطت
أرضًا واصطدمت سنابك الخيل بكتفها..
والغريب أن شيئًا لم يحدث، وأن الإصابة
لم تحدث بها ألمًا من أي نوع..
يقول (محمود):

- «ظلت في الفراش أسبوعًا كاملاً تحت
تأثير الرعب لا الألم، ولم أخبركم بشيء

حتى لا تطير أنفسكم شعاعًا.. الآن فقط
يمكنني أن أحكي لكم بعد ما انتهى
الموضوع، وتأكدت من عدم وجود ضرر،
وتأكدت من سلامة الحمل..»

- «وللمصادفة - القلوب عند بعضها -
اتصل بي د. (محمد شاهين) خال (ناهد)
ليقول لي إن كتف (نجلاء) يتألم.. هذه
المرّة أنا واثق من أن موضوع الشعور
المشترك بين الأختين انتهى، وأن سفرنا
إلى (أسوان) كان هو العلاج الناجع
للمشكلة.. لهذا لا أجد تفسيرًا سوى أن
(القلوب عند بعضها).. حمدًا لله.. ولتدم هذه
المحبة بيننا!»

- «كيف حالك يا حماتي؟ لقد بحثت في
(أسوان) كلها لك عن.....»

انتهى الخطاب، وما بقي هو هراء
معروف.....

ما معنى هذا؟

تبادلت النظرات مع د. (محمد شاهين)
والخطاب في يدي..

ما معنى هذا؟

سؤال مهم، لكنّ إجابته غريبة.. بل أقرب
إلى السخف.

أخيرا قالها د. (محمد)، وهو يأخذ
الخطاب من يدي كي لا أطلع أسرارًا
عائلية ليست من حقي (ويعلم الله أنني لا
أهتم بها أصلًا).

- «هل كونت رأيًا؟»

قلت وأنا أتحاشى نظراته المذهولة:

- «يمكن تلخيص الموقف في عدة نقاط:

١ - (نجلاء) تشعر بأشياء لم تحدث لها.
٢ - (ناهد) ليست هي صاحبة هذه المشاعر.

٣ - (نجلاء) شعرت بالحمل بينما (ناهد) لم تشعر به.. وفي النهاية (ناهد) هي الحامل لا (نجلاء).

٤ - (ناهد) أصيبت في حادث، ولم تشعر حتى بألم، بينما (نجلاء) هنا تتألم بعنف وقسوة..»

ثم عقدت أناملي تحت ذقني لأبدو خطرًا، وقلت:

- «أعتقد أن الظاهرة تتخذ منحى جديدًا..»

- «ماذا تعني؟»

- «أعنى أن (نجلاء) لم تعد تشعر بما
تشعر به (ناهد) فحسب.. بل وتشعر الآن
بما لم تشعر به (ناهد) كذلك.. وبعبارة أدق:
لقد صارت (نجلاء) هي التي تتألم وتعاني
بدلاً من شقيقتها!»



الفصل السابع:

لا جديد فيه.. ويمكن أن تنتقل للفصل الثامن..

- «هذا ما كنت أتوقعه!»
كذا صاحت (نجلاء) في جنون حين
أخبرتها بالاستنتاج الغريب..
- «(نجلاء).. إن ما يُقال بالصراخ يمكن
أن يُقال بصوت خفيض..
هذه المرّة كانت الدموع في عينيها..
دموع الغيظ.. دموع من ظلم ظلماً بيّناً:
- «هذا ما كنت أتوقعه! إن (ناهد)
مخلوقة أنانية كريهة، وقد ظلت طيلة
حياتها تجلب لي المشاكل، وتفوز بكل

شيء.. اليوم هي قد وصلت إلى الوضع
الأمثل لها: أنا أتألم بدلاً منها!»

تذكرت قصة (الأمير والصلوك) حين
كان للأمير وصيف مهمته أن يجلد بدلاً
منه؛ كلما ارتكب الأمير خطأ يستحق الجلد
عليه من أبيه أو معلمه.. هذا الوضع شبيه
بحالتنا إلى حد كبير..

قلت لها:

- «ليس للأنانية دور في الموضوع..
وهي لم تختَر هذا الوضع.. لقد اختارت
الطبيعة وضعًا متميزًا لإحدى التوءمين،
وحتى في التوائم السيامية يحدث أن يحتكر
أحد التوءمين النمو كله، بينما يتضاءل
التوعم الآخر، ليتحول إلى مجرد ثأولة أو
ورم في جسد أخيه..»

- «والحل؟»

سألتني في يأس، فقلت لها بعد تفكير:

- «إن الوضع لم يصل للاستقرار بعد...»

ما زالت حالتكما المريية هذه في طور التحولات.. وعلينا أن ننتظر...»

- «ننتظر؟ كل ما نفعله أن ننتظر..»

- «(نجلاء).. لو كان قرص الدواء الذي

ينهي حالتك في جيبى، فلا يوجد أي سبب يمنعني من إعطائك إياه حالاً..»



على أنني في تلك الليلة قررت أن الأوان قد حان لأستعين بمن هم أقدر مني وأكثر علمًا..

كنت أعرف أن د. (إيجور تاركوفسكي)
صديقنا القديم - هل تذكرونه وتذكرون
ثلاثية قارئ الأفكار إياها؟ - قد ترك
(مركز بحوث المخ) في مانهاتن، وانتقل
مع أسرته إلى (ساوث كارولينا) ليعمل
تحت إشراف واحد من أهم وأعظم علماء
ما وراء الطبيعة في عصرنا، ألا وهو عالم
النفوس الأمريكي (جوزيف بانكس
راين)³..

جلست وكتبت خطابًا لـ (إيجور) أحكي
فيه قصة الأختين العجيبين، وطلبت رأيي،
فإن لم يكن لديه رأي فليسأل أستاذه
العظيم..

وبعد أيام جاءني المغلف الأنيق الذي
ألصقت عليه طوابع تمثل الأنسة (حرية)

التي تحرس المدخل إلى (الولايات)..
كان الخطاب من (إيجور تاركوفسكي)،
ويقول فيه:

جامعة (دوك)

معمل الباراسيكولوجي

عزيزي د. إسماعيل

تلقيت - بمزيد من شغف - خطابك،
وسرني أن صاحب الصولات والجولات
في عالم ما وراء الطبيعة يطلب رأيي.
في البداية أحب أن أصحح خطأ بسيطاً:
أنا لا أعمل مع البروفسور (راين) بل
أعمل على الأسس التي وضعها، قبل أن
يستقيل من جامعة (دوك) ليعمل في
مشروعه الخاص الذي سمّاه (مؤسسة

بحوث طبيعة الإنسان)، وكان هذا عام ١٩٦٥ أي قبل مجيئي بدهر..

إن معمل الباراسيكولوجي هنا تم إنشاؤه عام ١٩٣٠، وهو معمل محترم يحاول تطبيق الأساليب العلمية الصارمة على ظواهر النفس، ونحن نستعين بالكثير من الإحصاء وقوانين الاحتمالات وميكانيكا الكم كي نفسر أشياء لا نعرف عنها سوى أقل القليل..

يسهل على المرء أن يفقد يقينه بجدوى ما نفعله.. يسهل أن يعتبرنا مجموعة من الحمقى ضلوا السبيل.. لكني سأكون آخر من يقنط.. لقد كنت أنا نفسي ظاهرة غريبة من تلك الظواهر يوماً ما، وإنني لمستعد لتصديق أي شيء يُقال في هذا الصدد..

لقد قابلنا كثيرًا جدًا من ظواهر التطابق
الشعوري بين التوعم ولا أجد غرابة في
هذا..

الغريب حقًا هو ظاهرة (إزاحة الشعور)
هذه، فهي جديدة لم أسمع عنها قط، والأمر
فيما أراه جدير بدراسة مدققة..
إذن أمامك حلان:

الأول: هو أن ترسل التوعمين إلى
(الولايات المتحدة)، ولسوف تقوم (رابطة
الباراسيكولوجي) الأمريكية بتمويل نفقات
سفرهما.

الثاني: هو أن تنتظر ثلاثة أشهر، لأنني
في طريقي إلى (كوريا) لحضور مؤتمر
علمي مهم، ويمكن أن أتوقف يومين في
(القاهرة).

أبرق لي بردك أو اكتبه في خطاب.
بإخلاص
د. أ. تاركوفسكي



كان جوابي هو انني أفضل الانتظار، لأنه
من المستحيل طبعاً أن أطلب من الفتاتين
السفر إلى (الولايات المتحدة) لتكونا فأري
تجارب في معامل جامعة (دوك)، حتى لو
كانت هذه سياحة مجانية..



طلب مني (مختار) - صديقي المحامي -
أن أمر عليه في المكتب لشأن مهم،
وعرفت على الفور أنّ هذا بخصوص
(نجلاء) التي صرت أنا وكيل أعمالها كما
يبدو..

توجهت إلى مكتبه في التاسعة مساءً كما
طلب، ولم يكن هناك في قاعة الانتظار
سوى ابن بلد فظ يوحى بأنه جزار ضرب
زوجته بالساطور.. وجاء (كمال) من
غرفة الأستاذ، فما إن رأني حتى تهلل
وصافحني بحرارة، ثم جلس جوارى
تعبيراً عن الود. فسألته:

- «كيف الأحوال عندك؟»

- «على أسوأ حال.. وأنت؟»

- «سيئ كالعادة.. كيف حال الرؤى؟»

- «مستمرة.. والآلام لا تتوقف..»

- «وأين هي الآن؟»

- «إنها تعود للدار في الرابعة عصرًا،
وأصارك انني لم أعد متحمسًا لعملها..
ربما كان البيت خيرًا..»

- «لكنّ العمل يبقيها بعيدًا عن ذاتها وعن
ذكرياتها..»

هنا انفتح الباب وبرز (مختار) ليرحب
بي بصوته الجهوري، ويدعوني إلى
الدخول.

- «أنا هنا يا أستاذ منذ ساعة ثم.....»

قالها الزبون الفظ محتجًا، وهو يرمقني
شذراء، وأدركت أنه على وشك فتح بطني
أنا في أية لحظة..

- «أصبر يا معلم.. أريد أن أكون رائق
البال حين تناقش قضيتك»

وشدني من ذراعي، فأطلق الزبون نفخة
هواء كادت تطيرني..

وانغلق الباب دوننا، فسألت (مختار):

- «إنك تتعامل مع عينات بشرية غريبة..
هذا الرجل مذنب - لا أدري بأي شيء حقاً
- ويمكن لأي قاض أن يتبين هذا..»

ضحك وهو يجلس وراء مكتبه، وقد
طوح برأسه للخلف وفكه للأمام:

- «ليس الأمر كما تظن.. إنه جاء ليرفع
قضية على من اعتدى عليه بالضرب!
والآن دعنا فيما أردت أن أحدثك فيه، تلك
الفتاة (نجلاء).. هل هي؟»

وحرك أنامل يده المفتوحة جوار جبهته
بإيماء معروفة معناها الجنون، فقلت في
كياسة:

- «لا.. ما كنت لا.....»
- «قل الحقيقة يا (رفعت)!»
- «ليست مجنونة.. لنقل إنها مصابة بـ
(العُصاب) وليس (الذهان)..»
- «حلاوتك!» - وضرب المكتب بقبضته
- «(عُصاب) و(ذهان)! حقًا يا له من
فارق كبير! بالنسبة لي يا (رفعت) أنا لا
أفهم إلا ما أراه.. فتاة لا تكف عن الصراخ
دون سبب.. أتركها وحدها دقيقة ولسوف
تجن هلعًا.. لا تتركها وحدها تجدها تصرخ
ألمًا دون أن يمسسها أحد.. كل هذا كثير..
كل هذا لا يليق بمكتب محاماة محترم..»

ثم ابتلع ريقه، وبصوت أكثر هدوءًا قال:
- «أنا لا أريدها عندي.. لكني لن أتخذ أية
خطوة ما لم أتأكد من أنك موافق.. فلن
أنسى ما قدمت لي من خدمات..»
قلت لنفسى: لا بأس.. الزوج كان ينوي
هذا على كل حال..
وله قلت:

- «ليكن.. أنت أدرى بمصلحة هذا
المكتب.. افعل الصواب...»
هنا انفتح الباب ليثب (كمال) إلى الداخل
مذعورًا، وقبل أن أفهم كان قد تشبث
بربطة عنقي ليقول في هستيريا:
- «لقد.. لقد.. (نجلاء)! تعال حاليًا يا
دكتور!»

في برود قال (مختار) وهو يسترخي في مقعده:

- «كما ترى! الأمور المعتادة هنا.. اذهب معه ولسوف أتصل بك..»
وانطلقنا خارج المكتب، وفي المصعد قال لي لاهثًا: إن الجيران اتصلوا به ليبلغوه أن (نجلاء) ابتلعت أقراص الإسبرين لتنتحر..
يا للحمقاء!



وجدتها بكثير من العسر وسط مئات الجيران وأطفالهم الذين احتشدوا في غرفة النوم، حتى تذكرت أتوبيس (٣٠٥) الذي كان يمرّ في هذه اللحظة قرب دارها،

وتوقعت أن يمرّ المحصل بتذاكره أو أن
أسمع من يقول: (العربيّة فاضية قدام يا
حضرات)..

كانت نائمة أو فاقدة الوعي، وجوارها ما
يسميه الطب الشرعي بـ (الدليل
العرضي)، وهو - هنا - عدة أوراق
خضراء كانت تحوي الإسبرين الذي
ابتلعه..

وأطلقت الأم صرخة حارة مولولة
مستغيثة ملتاعة مقهورة:

- «يا حبيبي يا بنتي ي ي ي ي ي ي!»
كان هناك كوب من الماء بقى بعض
الملح في قاعه مما جعلني أعرف أنها
تقيأت بالفعل، وتحسست نبضها.. كل شيء
على ما يرام...

رفعت صوتي كي يسمعني أحد خلق الله:

- «هل ابتلعت الأقراص هنا؟»

ضربت الأم بكفها على صدرها:

- «نعم.. نعم نفععمعم!»

أمسكت بالأوراق الخضراء، وعددت

الثقوب.. عشرة ثقوب لا أكثر.. إن هؤلاء

المنتحرين يعانون جهلاً مطبقاً بعلم

السموم..

لقد رأيت كثيرًا من حالات الانتحار،

وأكثرها كان تهويشًا لا أكثر من شخصيات

مضطربة.. عندها كنت ترى المنتحر

يركض ركضًا - حتى ليسبق كل من حوله

- جاريًا إليك، وهو يولول في ذعر:

لقد انتحرت! لقد انتحرت!

وباستجوابه يتضح أنه ابتلع قرصين من
الإسبرين في حين نعالج بعض مرضى
الحمى الروماتزمية بستة عشر قرصًا
يوميًا من الإسبرين!

لكن (نجلاء) لم تكن (تهوش).. هي فقط
تجهل علم السموم، ولحسن الحظ أنها لم
تجرب إحدى الطرق المصرية المحببة؛
على غرار إشعال النار في النفس بموقد
(الكيروسين)، أو قطع شرايين المعصم، أو
شرب زجاجة (بوليس النجدة)..
قلت للأم وأنا أنهض:

- «لا تقلقي.. إن عشرة أقراص لا تؤذي
بعوضة، وفي الغالب هي قد تقيأت الكمية
كلها.. سأكتب لها دواء للمعدة يمنع ما
ابتلعه من تمزيق غشائها المخاطي..»

والنسوة الشمطاوات المحتشديات، وكلهن
نهم إلى رؤية مصيبة أو سماع فضيحة،
قلت:

- «الآن إنصرفن مشكورات.. وعلى من
ترغب منكن في الانتحار مستقبلاً أن تقفز
من السطح، فهذا يعطي نتائج رائعة!»
نظرن لي كأنني مجنون بعيون تقطر
سمًا.. وممصن بشفاههن، وجذبت كل
واحدة طفلها الحافي الذي يتدلى المخاط من
أنفه، وبرطمت بالدعاء عليّ، ثم لثمت الأم
بشفتين لزوجتين:

- «هل تريدن شيئاً يا حبيبتى؟ قلبي
عندك!»

وهكذا بدأ الأوكسجين ينمو على استحياء
في الغرفة..



وقف (كمال) جوار باب الحجرة عاقداً
ذراعيه على صدره.. كان غاضباً مهموماً
كارها لكل شيء..

الحق إنه لموقف مؤسف، وشمنت رائحة
سبب لا يمكن تصديقه لغضبه، لكنني واثق
من أنه كان هناك: كيف جرؤت على
الانتحار دون أن تطلب إذنه؟

عسير على أي رجل أن تنتحر زوجته
على كل حال.. إن هذا يلصق به تهمة
الافتراء والتوحيش أو الغلظة..

كان (كمال) غاضباً، واستطعت فهم
أسبابه..

جلست جوارها ولدغت خدّها بأظفاري
حتى فتحت عينيها الحمرأوين بلون الدم،
من فرط البكاء والقيء..
قالت العبارة الخالدة التي أهلكتها الأفلام
العربيّة::

- «اتركوني.. دعوني أمت!»
واصلت اللدغ بقسوة، وقلت:
- «كنا نرجو ذلك، لكنّ عشرة أقراص
من الإسبرين لم تكن كافية للأسف، وعلى
كل حال مازلت لا أفهم السبب..
- «إنها تلك الآلام.. تلك الرؤى.. كل
شيء!»

وانفجرت في البكاء والمخاط، بينما الأم
تردد دون انقطاع عبارات فعالة في طرد
الأشباح والعفاريت.. تلك العبارات التي لو

سمعها الأب (ميرين) في رواية (طارد
الأرواح الشريرة) لطار فرحاً⁴..
قلت لها في نفاذ صبر:

- «ليكن.. أنت تتعذبين.. لكنك تحاولين
الفرار من العذاب إلى الجحيم المطلق، ولو
انتحر كل المعذبين فلن تجدي من يدفئك..
إنها فكرة حمقاء، وما كنت أظنك بهذا
السخف..»

لكني كنت أعرف أن المنتحر - حقيقة لا
تهويشاً - هو ببساطة شخص مجنون..
شخص وصل لحالة من الجنون اللحظي
يستحيل فيها أن يتعقل.. وعرفت مدى الألم
الذي اعتمل في نفس هذه الفتاة..
قلت لها بخشونة:

- «لو أردت الانتحار فافعلي.. إن رحيلك سيزيد من بهجة الحياة، ويعالج الزيادة السكانية، ويحسن موارد الدولة بما لا يُقاس.. لن يخسر أحد شيئاً سواك على كل حال..»

- «د. (رفعت).. لا تقس عليّ أرجووووووك!»
وراحت تنهه كالعادة.....

مسحت مخاط أنفها بطرف الملاءة، ثم نهضت عازماً على الانصراف.. لكنّ وجهه (كمال) لم يرحني...

عرفت أنه يفكر في أمر خطير.. عسير عليه أن يتحمل كل هذه الفضائح وكل هذه الضوضاء، وبما أنه رجل تقليدي سيكون رد فعله تقليدياً..

سألني بوجهه الكظيم:

- «هل كل شيء على ما يرام يا د.

(رفعت؟)»

- «بالتأكيد..»

- «هل هي بخير ولا خوف عليها؟»

- «نعم..»

- «أي أنها تتحمل جيدًا الآن؟»

- «لا أدري ما الذي.....»

قال دون أن ينظر لأي شيء.. لا لي ولا لها ولا للأرض ولا للسقف:

- «حسن.. هي طالق منذ هذه اللحظة!»

ودون كلمة أخرى غادر الغرفة..

هذا الفتى - كما ظننت دائمًا - يهوى

مشاهدة الأفلام العربية..





قال دون أن ينظر لأى شيء .. لا لى ولا لها ولا للأرض
ولا للسقف : « حسن .. هى طالق منذ هذه اللحظة ! » ..

الفصل الثامن:

أحداث متوقعة..
ولو كنت مكانك
لانتقلت للتاسع

كدت أذكره بأنه لم يطلقها ثلاثًا، وبهذا ما
زالت لديه فرصة لإرجاعها لعصمته.. ثم
قررت أن الصمت قد يكون أفضل..



لن أصف المشهد الميلودرامي العنيف
الذي تلا هذا.. إن هذه الأمور تحطم
الأعصاب على كل حال..

لن ألومه - وكيف ألومه؟ - ولكنني
ألومها.. لقد بلغ بها الألم ذروته ولم تجد إلا
حلًا واحدًا.. والحل كان غير مرض لأي
طرف.....

وهكذا غادرت المنزل، وقد قررت أن
أزور الفتى عند (مختار) كي أحاول
إصلاح الأمور.. إن (نجلاء) حمقاء
مزعجة لكنني أحبها كابنة لي، وما زلت
أجدها تستحق ما هو افضل..
أين أنت يا (إيجور)؟



وفي صالة الاستقبال بالمطار وقفت - وقد
جاء الميعاد - حاملاً لافتة كبيرة كتب عليها

بحروف لاتينية (دكتور إيجور
تاركوفسكي)، فبدا مظهري كأحد مندوبي
شركات السياحة ينتظر فوجًا من (نيام
نيام)..

الغريب هنا أنني لم أر (إيجور) قط، ولا
أعرف كيف يبدو..

فقط على أن أبحث عن شخص له سمات
(شرق أوروبا)، وله أنف عملاق عجيب..
هكذا وصف نفسه..

كان الزحام شديدًا، ورحت أبحث بين
الخارجين من البوابة عن أي وجه يصلح..
تلك المرأة.. لا؟ هذا الطفل؟ صعب.. هذا
الكهل؟ لا..

ثم رأيته أخيرًا.. من العسير أن تخطئه
العين حقًا.. أكبر أنف يمكن أن تراه في

نصف الكرة الشمالي بعد المرحوم (سيرانو
دي برجيراك).. أنف يذكرك ببيتي (ابن
الرومي) العبقريين:

حملت أنفا يراه الناس كلهم

من ألف ميل عياناً لا بمقياس

إن شئت كسباً به صادفت مكتسباً

أو انتصاراً مضى كالسيف

والفاس

أي إنه أنف صالح لكسب الرزق، وصالح
للحرب كذلك! فيما عدا هذا كان وجهه
مليئاً قسيماً يذكرني على الفور بوجوه أهل
(رومانيا) أو (بلغاريا) أو.....

المح اللافتة أخيراً، فدنا مني، ولا بد أنه
كان يردد في ذهنه أبياتاً من الشعر

البولندي تصف صلعتي ونحولي الشديد...
بانجليزية متأمركة لا أثر للكنة أجنبيّة
فيها، سألني:

- «د. (إسماعيل).. أليس كذلك؟»

- «د. (تاركوفسكي).. أليس كذلك؟»

- «طالما تصورتك في شكل مختلف
قليلاً..»

- «لحسن الحظ أنك لست فتاة، وإلا لماتت
رعباً..»

نظر حوله.. ثم سألني بطريقة عملية جداً:
- «أين الموضوعان؟»

وهي طريقة يوحى بها بالتجرد العلمي،
فقلت له باسمًا:

- «ليس بهذه السرعة... إن الحماس
شيء جميل أفقر أنا له، لكنّ ليس إلى هذا

الحد.. يجب أن تستريح أولاً..»
- «المشكلة هي أن وقتي ضيق، وعليّ
أن أطيّر إلى (كوريا) غداً..»
- «إذن تذهب لفندقك، ولسوف أعود
لأصطحبك في السادسة مساءً..»



رتبت اللقاء في مكتبي بالجامعة.....
يجب أن أقول هنا: إنني كنت قد اتصلت
بـ (محمود) في (أسوان) طالباً حضور
(ناهد) على وجه السرعة، لأن خبيراً
أمريكياً (في هذه الأشياء) قادم بعد
أسبوع..

إن أنانية الإنسان ولا مبالاته تثيران حنقي
دومًا.. لقد تعلّمت ألا أندهش لشيءٍ،
وتعلّمت أننا جميعًا حفنة من الأوغاد لن
ينقذهم من عذاب جهنم إلا رحمة ربّي..
لكن ليس إلى هذا الحد!

لقد قال لي (محمود) في برود:
- «هل تعلم كم يرهقنا السفر إلى
(القاهرة) ماديًا ومعنويًا؟!»
- «هذا الرجل قد يملك الحل لمشكلة
الأختين.. إنه تلميذ (راين) شخصيًا..
تصوروا هذا! تلميذ (جوزيف بانكس
راين)!»

- «حتى لو كان تلميذ (ابن سينا)
شخصيًا، فهذا لن يجعل الانتقال أكثر
سهولة..»

كنت أعرف نقطة الاختلاف الأساسية
هنا، والتي يحاول ألا يفصح عنها لي: لقد
صارت (ناهد) على ما يُرام بل هي وجدت
من يتألم ويتعذب بدلاً منها.. إذن ما
دورهما في المشكلة؟ لقد انتهت متاعبه
ومات (صلاح)، وكفت (ناهد) عن
العذاب.. لماذا ينبغي أن يعطل أعماله
ويحضر زوجته لتصير فأر تجارب عالم
أمريكي من تلاميذ (راين)؟

غلى الدم في عروقي.. أنا أمقت هذه
الفلسفة النفعية مقتي لجهنم، ولهذا قلت له
ضاغطاً على كلماتي:

- «(محمود).. أنا لا أمزح.. إن (نجلاء)
في جحيم مقيم، بل حاولت الانتحار مرة،
ولسوف تنجح حتماً في المرة الثانية،

وشفاؤها يحتاج إلى أن تتفضل وحرمكم
بالحضور إلى (القاهرة)..<»

- «إذن لماذا لا تحضر عالمك هذا
و(نجلاء) إلى (أسوان)؟ إنها فرصة
للسياحة..<»

- «وددت هذا، لكنّ وقت الرجل لن
يسمح بهذا الترف..<»

- «ولكن.....»

قلت له من جديد بوقاحة وتحدي:

- «(محمود) إن لم تأت سيكون لي
تصرف آخر!»

- «هل هذا هو التهديد؟»

- «هو بعينه..<»

- «وماذا ستفعل أيها القوي؟»

- «لن أقول لك كي لا تتخذ احتياطاتك..
أنا بانتظار حضوركما!»
ووضعت السماعة في حزم:
لم أكن أمزح أو أدعى القوة.. لدى بالفعل
ورقة قوية للضغط على (محمود)، لكني لم
أكن لأستعملها أبدًا: (ماهر)! إن (محمود)
مستعد لعمل أي شيء كي لا يذهب الطبيب
الأصلع للقاء (ماهر) ويخبره بعنوان
(محمود) ورقم هاتفه.. (محمود) الذي هو
قاتل أخيه.. وبرغم أنّ هذا حل يطير رأسي
بدوره...



لكنني - والله الحمد - لم أضطر إلى هذا
الاختبار، الذي يضع في الميزان مصداقية
تهديداتي..

سرعان ما ظهر (محمود) وحرمه - التي
دنت من الولادة.. وطفلها..

ثلاثة وجوه أحرقتها شمس (أسوان) يبدو
عليها بعض التذمر مع القلق.. إن (محمود)
لم يعد يحبّ العودة إلى (شبرا)، خاصة بعد
ما عرف أن شبح (صلاح) يتعقبه في
صورة (ماهر) هذا..

وفي السادسة مساء.. دخلت مكتبي مع
(إيجور تاركوفسكي)، وبعد دقائق جاء
الطبيب المقيم - الذي أصابه الذعر
لظهوري في ساعة كهذه - ومعه توءمان
وزوج.. (ناهد).. (نجلاء).. (محمود)..

قمت بإجراء التعارف اللازم، ثم طلب مني (إيجور) أن أخفي (ناهد) بعيدًا عن أختها.. وقال لي:

- «للأسف لا أجد إمكانيات معاملنا، كالدائرة التلفزيونية المغلقة وجهاز قياس الطاقة النفسية، لكنني سأحاول التصرف في حدود الإمكانيات.. هل معك ساعة؟ حسن.. سأعطيك ورقة بالمؤثرات المؤلمة التي ستحدثها لدى (ناهد) - أليس هذا اسمها؟ وعليك أن تحدد الوقت بدقة بالغة لكل مؤثر.. حسن؟»

- «موافق..»

واصطحبت (ناهد) المتشككة إلى العنبر بعيدًا عن سمع ونظر أختها..

ثم بدأت أعرض ذراعها لمؤثرات متباينة
من وخز الإبر إلى الحرارة إلى اللمس إلى
الاهتزاز، وفي كلّ مرّة كنت أدون الوقت..
طال الفحص لمدة نصف ساعة.. ثم
طلبت منها أن تعود معي..

سألتني في ضيق وهي تنزل كم ثوبها:

- «ماذا يريد ذلك المختل؟»

- «يريد معرفة الحقيقة..»

- «ماذا يقول بالإنجليزية؟ أنا أكره أن

يتكلم الناس عني بما لا أفهمه..»

تنهدت في صبر، ولم أعلق.. فقط تقدمتها

إلى حجرتي..

كان (إيجور) جالسًا إلى المكتب بدون

آخر ملاحظاته، ثم مد يده ليتناول ما كتبت

أنا..

قارن الأزمنة بطرف قلمه، ثم هزّ رأسه:
- «تطابق شعوري تام.. لا شك في هذا..»

ثم قال وهو يناولني ورقة أخرى:
- «الآن نفل الشيء ذاته بالعكس..»
ومن جديد اصطحبت (نجلاء) المكتبة
الصموت إلى العنبر، وكررت ما فعلته مع
أختها.. وكالعادة سألتني:
- «هذا (الخواجة).. هل هو مجنون
قليلاً؟»

- «ربما.. لكنه عبقرى كذلك..»
- «وهل يملك شفائي؟»
- «لا أدري.. لكنه يملك أن يحاول..»
وعدنا إلى حجرتي، وفي هذه المرة ابتسم
(إيجور) ومد يده يلوح بملاحظاته لي..

كانت ورقته بيضاء من غير سوء..
إن (ناهد) لم تشعر بشيء على الإطلاق
مما أصاب (نجلاء)..
قلت له وأنا أجلس:

- «لا جديد في هذا.. كلنا يعرف هذا..
فقط تأكدت أنت من أنني لا أخرف أو
أتلاعب بك..»

قال وهو يرمق الفتاتين في انبهار:
- «إن هذا كنز حقيقي.. ولعلها المرة
الأولي التي توصف فيها ظاهرة مماثلة..
وإنني لفي حاجة إلى إجراء رسم للمخ في
أثناء حدوث هذه الظواهر.. أحتاج أيضًا
إلى إجراء اختبار بالبطاقات لقياس الإدراك
فائق الحس لدى (نجلاء) هذه..»

كانت (نجلاء) ملمة بالإنجليزية إلى حدٍ ما، فاستطاعت التقاط كلمات مثل (حقيقي - المرة الأولى - نجلاء) لكنّها لم تقدر على وضع هذا كله في عبارات ذات معنى..
أما (محمود) - وقد ازدادت عيناه حولاً - فقد فهم أكثر المحادثة، وبدأ لي متوترًا بحق.....

قلت لـ (إيجور):

- «يمكنني ترتيب رسم المخ غدًا مع وحدة الأمراض العصبية.. هل تحتاج لشيءٍ آخر؟»

- «نعم.. أريد مجالًا للأشعة تحت الحمراء..»

ضغطت على أسناني، وأنا أتصور هذا السيرك الذي أنا مطالب بإعداده غدًا..

يمكن اقتراض الجهاز بشيء من العُسر من
وحدة الأطفال المبتسرين، فهم لا يستغنون
عنه في حالات صفراء حديثي الولادة..
لكن الأمر شبه مستحيل في (مصر) حيث
تصطدم بمئات العقبات: عهدة.. لا يمكن
نقله.. ماذا تريد عمله بالضبط؟ لا بد من
تصريح من العميد.. لا بد من موافقة
الأمن.. إلخ.

لكنني قد عازمت على أن أفعل ما يريد
(إيجور)..
* * *

الفصل التاسع: ممل جدًا.. وعليك بالفرار إلى العاشر

في العاشرة صباحًا انتهيت من أكثر
الترتيبات..

كان همي الأكبر هو الفضوليون.. فلا
أريد أن ألصق بسمعتي - كطارد أشباح
مخبول - تهمة إجراء تجارب غامضة لا
تستند إلى أساس علمي..

وما أكثر الفضوليين! كأنما هو أمر خارق
للطبيعة أن ترى فتاتين توءمين وطبيبًا
أصلع وطبيبًا أمريكيًا كبير الأنف، يحمل
أحدهم جهازًا للأشعة تحت الحمراء

وبطاقات ورسام مخ... وكل هذا متجه إلى
مكتبي الذي أحكمنا غلقه..

قام (إيجور) أولاً بإجلّاس (نجلاء)
أمامه.. ثم راح يخرج لها أوراقاً عشوائية
من مجموعة أوراق لعب خاصة به...
كانت الأوراق تحمل رسوماً معينة سهلة
كالنجمة والدائرة والصاعقة.. إلخ.. وكان
على (نجلاء) أن تخمن الرسم الموجود
على ورقة اللعب، دون أن تراها، وتقوله
لأترجمه لـ (إيجور)...

كانت هذه التجربة من تجارب (راين)
الشهيرة.. إن عدد بطاقات اللعب اثنتان
وعشرون، فلو استطاعت (نجلاء) أن
تصل للتخمين الصحيح في خمس منها

لكان معنى هذا امتلاكها للإدراك الفائق
للحواس E.S.P..

والمشكلة في هذه التجارب أن قابليتها
للتكرار محدودة جدًا؛ وهذا يؤدي إلى
ارتفاع في نسبة (الاحتمالية) التي يرمز لها
الإحصائيون بـ (P).. إن التجارب التي
ترتفع فيها نسبة (الاحتمالية) هي تجارب
يمكن تفسير نتائجها بالصدفة المحضة..
تجارب لا يمكن تكرارها بنفس النتائج..
تجارب يتعذر النظر إليها بمنظار علمي
لأن الحقيقة العلمية (يجب) أن تكون قابلة
للتكرار...

أفقت من خواطري على صوت (إيجور)
يقول بانتصار:

- «سبع!»

سبع من اثنتين وعشرين محاولة.. لا بأس
على الإطلاق..
قلت له:

- «لكنّ الرقم سينخفض لو كررت
المحاولة بالتأكيد...»
ضحك طويلًا، وقال:

- «إنها المحاولة الثالثة يا صديقي..
والنتائج هي ست.. تسع.. سبع.. برغم أنك
تترجم لي ما تقوله الفتاة أجداك شارد الذهن
تمامًا..»

ووضع الأوراق في علبة أنيقة ودسها في
جيبه، وأردف:

- «إن الفتاة تملك إدراكًا فائقًا للحس.. هذا
ما استوثقنا منه، وليس لقانون الصدفة دور
هنا..»

- «وماذا يجدينا هذا؟»

- «سترى حين انتهى..»

وأمرني بأن أبدأ بإظلام الغرفة وإسدال الستائر، وفي الظلام شبه الدامس جعلت (ناهد) ترقد على سرير الفحص الصغير وتغمض عينيها، بينما (نجلاء) تجلس وراء مكتبي..

ثم قام (إيجور) بتسليط كشاف الأشعة تحت الحمراء على (ناهد)، بعد ما قام بربط أقطاب رسام المخ الكهربائي إلى رأسها..

سيرك! هذا هو ما تحول إليه مكتبي.. لو ان عميد الكلية مر الآن وفكر في أن يفتح الباب.....!

- «الآن أبدأ المؤثرات المؤلمة..»

وهكذا وقفت جوار سرير الفحص،
ورحت - لقد صار هذا مملاً - أغرس
دبوساً في ساقى الفتاة وذراعيها، ثم
أعرضها لمؤثرات حرارية (هي دبوس
قمت بتسخينه بقداحتي)، ثم أضغط على
عظامها..

من خلف المكتب كنت أسمع صوت الـ
(أي) والـ (أوه) الخاص بـ (نجلاء)،
واقشعر جسدي.. غريب جداً.. أن تؤذي
جسداً فيتأوه جسد آخر من شدة الألم...

كان (إيجور) يراقب رسام المخ الكهربى
فى أثناء عمله..

وفجأة صاح وهو يخرج آلة تصوير من
حقيبتة:

- «(رفعت)! هل تراه؟!»



إنَّه يأتي من العدم ليذوب في العدم..
هل تراه؟ يعبر الآباد والأبعاد كي يتجسد
في صورة شعاع زمردني لا يني عن
التوهج.. براقًا وامضًا رقرقًا ينساب في
تؤدة.. فهل تراه؟

تتوهج له أرواحنا قبل وجوهنا وسماتنا
الخارجية..

لقد جاء من بعيد.. من قلب الكون حيث
تنعس الأسرار.. من وراء السدم في
المجرات القصية.. من كهوف لم يزرها
بشر.. من جزر لم ترسم على خريطة..

من كواكب لم يرها مرصد.. من الجانب
المظلم من القمر..

ربما لمحہ - في فجر الكون - غزال وليد،
فأجفل يلحق بخطا أمّه عبر سهول
(التايجا)، أو ارتجف لرؤياه طفل على
كتف أمّه، فارتجفت بدورها لأنها لا ترى
ما يراه.. فلا بد أنها بسملت وحوقلت..

ربما التمع لحظة في عيني فتاة تمنيت أن
تكون لك، وعرفت أنك لها..

ربما اقشعر له جسد ناسك يرمق السماء
المظلمة وحيداً، وربما رآه (بيتهوفن) ولم
يستطع وصفه، فداعب مفاتيح البيانو كي
تولد سيمفونيته التاسعة..

ربما رآه من يحتضرون لحظة
احتضارهم ولم يصفوه قط.. ربما أبصره

أكثر من شاعر طار صوابه بعدها.. فلم
يكتب حرفاً...

ربما يبقى بعد ما نفنى..
ربما هو موجود قبل أن نوجد..
لكنه هامس غريب متفرد، لهذا لم نعرف
بوجوده قط..

هل تراه يا (رفعت)؟
نعم أراه.. وأعجز عن وصفه..



كان الضباب الفوسفوري الأخضر
الرقراق يتسلل في خط طويل بطيء من
رأس (ناهد) إلى فضاء الغرفة.. يتلوى هنا
وهناك.. يدور من حولي ومن حول رأس

(إيجور) ثم ينتهي ليحيط رأس (نجلاء)
بهالة كهالات القديسين في رسوم
(رافائيل)..

وفي ذعر همست (نجلاء):
- «بسم الله الرحمن الرحيم.. ما هذا؟»

برهبة، وتؤدة همست لها:

- «إبقى كما أنت بلا حراك.....»

ونظرت مستغيثًا إلى (إيجور)، لكنه -
لحسن الحظ - لم يبدُ مذعورًا ولا مذهولًا..
كان يعرف ما عليه أن يتوقعه..

قال لي بصوت ثابت:

- «هذا هو (السيال الحيوي).. لا تخف..

لقد رأيته كثيرًا في تجارب تحضير
الأرواح، ولا يمكن رؤيته إلا في الأشعة
تحت الحمراء..»

وواصلت (نجلاء) الأنين بلا انقطاع،
بينما جسدها كله قد صار مغلفًا بهذا
الضباب الأخضر..



يتلوى هنا وهناك .. يدور من حولي ومن حول رأس (إيجور) ثم ينتهي
لبحيط رأس (نجلاء) بهالة كهالات القديسين في رسوم (رافائيل) ..

(إيجور) يمسك بالكاميرا ويلتقط عدة
صور للأختين... كليك! كليك! كليك!
مستحيل أن يسمح هذا الظلام بصورة
جيدة، ما لم يكن هذا الفيلم من نوع خاص
يلتقط الأشعة تحت الحمراء..
قال لي همسًا:..

- «استمر في إيذاء (ناهد)»..
كانت (ناهد) مغمضة العينين كما
أمرتها..

ومددت يدي بالدبوس كي أغرسه في
شحمة أذنها - برفق طبعًا - لكنّها اختارت
هذه اللحظة كي تفتح عينيها.. ولا بد أن ما
رأته كان مرعبًا..

- «آآآآآه! أضيئوا الأنوار!..»

كانت صرختها مريعة كأنما تحاول
انتزاع ذراعها الأيسر.. لكني لا ألومها
أبدًا.. لا بد أن منظرنا كأشباح سوداء وسط
ضباب فوسفوري أخضر كان مرعبًا...
وكانت الصرخة كافية كي يتلاشى
الضباب بلا مقدمات...

وبيد مرتجفة أضأت النور الكهربائي،
واتجه (إيجور) إلى النافذة ليفتح ستائرهما..
ضوء الشمس الحبيب يتسرب كأنه
مسحوق غسيل يزيل كل هذه الظلال
النفسية...

نظر حوله ثم قال:

- «هل الجميع بخير؟»

قلت له:

- «أظن هذا، ما لم تكن واحدة منهما قد جنت..»

ورحت أزيل الأقطاب عن رأس (ناهد)،
التي راحت ترتجف وأسنانها تصطك..
وراحت تردد:

- «عفاريت! أنتم تتعاملون مع العفاريت!
لقد كانوا هنا معنا.. أنا واثقة من ذلك..»
- «ماذا تقول؟»

كذا سألني (إيجور) وهو يجمع حاجياته
في حقيبته، فترجمت له ما قالت الفتاة..
قال بابتسامة علية بالأمور:

- «لا ألومها كثيرًا.. لكن لا عفاريت في
الموضوع.. قل لها: إن هذه صورة من
الحياة اليومية في معامل
(الباراسيكولوجي)»

- «لن أقول، فلن تفهم.....»

هنا دَوّت طرقات على الباب..

- «د. (رفعت)! هل أنت بخير؟»

لقد سمعوا صراخ الفتاة.. توتر (إيجور)
لكنني أشرت بيدي كي يطمئن، واتجهت
إلى الباب وفتحته...

كان هناك ثلاثة أطباء وممرضتان
وعامل، قد حشروا رءوسهم في فتحة
الباب محاولين فهم ما يجري هنا...

قلت لهم بابتسامة مشجعة:

- «لا شيء.. إنه (السيال الحيوي) قد أثار

رعب الفتاة.. إن هذه الأشياء تحدث!»

هزوا رءوسهم في فهم ذكي وانصرفوا..

هذا هو الحل الوحيد.. دعهم يعتقدوا أنني

مجنون وكفى.. أمّا إعطاء تفسيرات كاذبة

فلن يزيد الأمور إلا تعقيداً.. وعلى كل حال
أعتقد أن كلاً منهم يخشى أن يسأل
الآخرين عن معنى (السيال الحيوي) هذا،
حتى لا يبدو جاهلاً بأمر بديهي..
وعدت إلى (إيجور) أسأله:
- «الآن أريد تفسيراً لكل ما حدث في هذه
الغرفة..»



الفصل العاشر:

مهم نوعًا.. لكنه
لن يضيف شيئًا
إلى الفصل التالي

قال (إيجور تاركوفسكي):
- «إن الفتاة أنانية.. وهذا هو مفتاح
الموضوع..»

كنا جالسين في (كافتريا) صغيرة على
طريق المطار، عالمين أنه يجب أن يكون
في صالة المسافرين خلال ساعة..
قلت له وأنا أقطع شريحة اللحم:

- «لقد كان يومك مرهقًا.. تجربة
الصباح، طبع الصور ودراسة رسم المخ،
ثم استنتاج الموقف من كل هذا..»

راح يلوك طعامه مفكرًا ثم قال:
- «هذا عملي وأنا أحبه.. أنت رأيت
الصور طبقًا.. فما رأيك؟»

وأشار إلى عدة صور ملقاة على المنضدة
بجوار طبقه.. كانت - في أكثرها - تظهر
بقعًا لونية لها السمات الخارجي لـ (ناهد)..
هذا هو جسدها كما تراه الأشعة تحت
الحمراء، وكان (السيال الحيوي) يخرج
منها كدخان لفافة تبغ ويتلوى في الهواء..
قلت له:

- «الأمر واضح.. كل شيء يبدأ من
الفص الجبهي للفتاة.. إن رسم المخ - كما
تؤكد أنت - يظهر نشاطًا كهربيًا غير
عادي هناك..»

راح ينظر للجالسين حولنا: الفتى والفتاة
الجالسين يتهامسان على منضدة ذاتية..
العجوز الأرستقراطية الصموت التي
تحشو فمها بالمكرونة... الرجل العصبي
الذي يبدو كلص حقائب، ولا يكف عن
التلفت حوله..
وقال:

- «كل هؤلاء يبعث منهم (سيال حيوي)
في كل لحظة من حياتهم، ويؤثر بشكل ما
على من يحيطون بهم.. لهذا تلقى من
يمنحك البهجة أو النشوة، وتلقى من يمنحك
الكآبة أو القلق.. لهذا تعرف الشخص حتى
لو تنكر بشكل متقن.. لهذا يُمكنك أن تحسد
الآخرين.. إن (السيال الحيوي) المنبعث
منك يؤثر بشكل ضار في (السيال) الخاص

بمن تحسدهم، ولهذا يمرضون ويتشاجرون
ويتصرفون بحماقة..»

- «هذا كلام شعري لا يمكن إثباته..»
هزّ رأسه في أسي، وغمغم:

- «هذا حق.. كل تجارب
الباراسيكولوجي غير قابلة للتكرار
للأسف.. وقد اعتدنا أن نساوي الـ (P)
أكثر من خمسة بالمائة.. هذا قدرنا...

لكن هناك ما يعرفه الإحصائيون بـ
(الخطأ من النوع الثاني)، حين تكون
النتائج مهمة حقًا، لكنّ الإحصاء يقول إنّ
لا أهميّة لها.. ولعمري هذه هي مشكلة الـ
(P) الأزلية..»

انتهت شريحة اللحم للأسف ولم أشبع
بعد، لذا رحلت التهم السلطة وأصغي لما

يقول (إيجور):

- «إن الفتاتين تملكان ذات (السيال الحيوي)، لهذا كانتا على اتصال شعوري دائم كأنما ما يربط بينهما سلك من أسلاك الهاتف..»

رفعت يدي معترضًا لأذكر.. كما يقولون في الاجتماعات - نقطة نظام:

- «لحظة.. لقد ظهرت هذه الظاهرة في وقت متأخر نسبيًا.. ربما بعد انتهاء فترة المراهقة..»

- «منطقي... أن تباعد الفتاتين جسديًا - بعد ما تزوجت إحداهما - جعل الرابطة المعنوية أقوى.. إن الهاتف لا أهميّة له حين تكون زوجتك معك في غرفة واحدة،

لكنّ حين تسافر أنت يغدو الهاتف أهم
جهاز في الكون..»

كدت أخبره أنني غير متزوج، ثم تجاهلت
هذا حتى لا يسألني عن السبب وكل هذا
الهراء.. وسألته أو - بالأحرى - عارضته:
- «المفترض أن الظواهر

الباراسيكولوجية تنتعش في سن مراهقة
الفتيات، وإلا لا تنتعش أبدًا..»

- «نحن لسنا بصدد ظاهرة
باراسيكولوجية معروفة كالتحريك عن بعد
أو التخاطر أو الوساطة.. نحن نتحدث عن
اتصال شعوري ازداد قوة في فترة ما..»
عدت أسأله وقد انتهت السلطة للأسف:

- «لكنّ هذا الاتصال انقطع في فترة
ما..»

- «بعد حادث الاختطاف.. هذا

صحيح..»

ورشف بعض الماء، وأردف:

- «لقد كان العذاب شديدًا، والخوف أشد..

لهذا قاومت (نجلاء) كثيرًا كي تلغى

ارتباطها الشديد مع أختها.. إنها لا تميل

إليها بحال، لكنّ عقلها الباطن - عقل شهيدة

حقيقيّة - لم يتحمل فكرة أن تعاني (ناهد)

الآلام ذاتها.. هكذا ببساطة قام بقطع حبل

الاتصال بين الأختين، ولم تعد (ناهد)

تستقبل شيئًا..»

- «هكذا ببساطة؟ لم أحسب (نجلاء) بهذا

النبيل..»

- «هي بهذا النبيل لكنّها لا تعرف.. وهذا

هو سبب عذابها..»

ثم مد يده بالسكين، ووضع رغيًا في طبقه، وبنصل السكين قسمة إلى نصفين:
- «هكذا كانت الفتاتان كيانًا واحدًا سرعان ما انقسم في رحم الأم، وظفرت واحدة منهما بقسط هائل من النفعية والأنانية، بينما لم تظفر الأخرى بشيء منهما.. نفس الشيء حدث بالنسبة للجمال وفرص الحياة، وإن كانت (ناهد) غير جميلة على الإطلاق بمقاييس أمريكي مثلي..»

«أنت تعرف ما يحدث للتوائم السيامية كثيرًا.. إذ يتحول واحد منهما إلى وحش أناني يمتص كل الغذاء، ويمتص وجود أخيه نفسه، ليتحول الأخير إلى ورم أو ثأولة في جسد الأول..»

«كانت (ناهد) توءمًا من هذا النوع
الأناني، لكنّها امتصّت (نجلاء) نفسيًا،
ويبطء - حين انقطع الإرسال من جهة
(نجلاء) - صارت (ناهد) قادرة على
إرسال كل الأمها وأحزانها إلى أختها
البائسة.. بل إنها ترسل مخاوفها كذلك
لها!»

التهمت أحد نصفي الرغيف، وسألته:
- «ماذا تعني؟»

- «شبح الفتى الذي يطارد (نجلاء).. من
المنطقي أكثر أنه يطارد (ناهد) التي لا بد
أن تشعر بعقدة ذنب تجاهه.. أعتقد أنّ هذا
الشبح يطارد (ناهد) أساسًا لكنّها ترسله إلى
أختها!»

- «(ناهد) تفعل كل هذا؟»

- «لا شعوريًا تفعله.. عقلها الباطن يفعله..»

وأشعل لفافة تبغ غريبة المنظر، فسألتها في حيرة:

- «حسبت من رسالتك السابقة أنك لا تدخن..»

- «أحيانًا أفعل.. أحيانًا بعد وجبة دسمة كهذه!»

نظرت إلى الأطباق الفارغة، وتساءلت عن فارق لفظة (دسم) بين المصري والأمريكي.. لشد ما تتباين الثقافات.

نفث دخان اللفافة في الهواء، وقال:

- «ثمّة نقطة مهمّة لم تلاحظها أنت، ولاحظتها أنا في خطابك.. لقد أجريت جراحة - لقرحة معدية - لـ (ناهد)، وبرغم

هذا لم تتم (نجلاء) عندما أخذت (ناهد)
جرعة التخدير.. وبعد هذا بأشهر نامت
(نجلاء) حين حقنت أنت (ناهد) بالـ
(بارالدهايد).. فما سر هذا التناقض؟»
اتسعت عيناى.. حقًا لم أتنبه لهذا من
قبل..

قال مبتسمًا:

- «في الماضي كان البث الشعوري
مزدوجًا بين الأختين، وكان بوسع (نجلاء)
أن تستجيب أو لا تستجيب، لأن لديها
مشاعرها الخاصة.. أمّا في الحاضر فقد
صارت (نجلاء) تحت سيطرة (ناهد)
بالكامل..»

هزرت رأسى موافقًا، وبدأت أفتك بنصف
الرغيف الأخير، فقال باسمًا:

- «لم أحسبك بهذه الشهية الطيبة برغم
نحولك!»

- «إنني لا أعترف بطعام المطاعم..
أعتبره نوعًا من فواتح الشهية لا أكثر..
ولا أذكر قط أنني شبت في مطعم..
وبفم ممتلئ بالخبز سألته:
-«والحل؟»

قال في جدية وهو يرمق الصور:
- «إن (ناهد) استحوذت تمامًا بسيالها
الحيوي على أختها، ولا مفر لنا سوى
استئصال مصدر هذا السيل.. إن بوسعنا
الآن أن نحدد ذلك المصدر: المنطقة (ب)
من الفص الجبهي لـ (ناهد).. وما أتحدث
عنه هنا هو الجراحة النفسية، كالتي
أجريت لي في (الولايات).. إن دكتور

(إير هارت) في (منيسوتا) قد صار حجة
في هذه الجراحات، ويعالج الهستيريا
والوسواس القهري بمبضعة ببراعة
تامة..»

ابتلعت ريقي، وعدت أسأله:

- «والنفقات؟»

- «هل يمكن تدبير علاجها على نفقة

الحكومة هنا؟»

ابتسمت في مرارة:

- «يمكنني أن أتصور نفسي وأنا أكل

المسؤولين هنا عن ضرورة استئصال

(السيال الحيوي) لـ (ناهد) على نفقة

الدولة! سيكون هذا مشهدًا مسليًا حقًا..»

أطفأ لفافة تبغهِ مفكرًا، ثم قال:

- «يمكن إقناع جامعة (دوك) بتحمل النفقات في سبيل البحث العلمي.. إن حالة الأختين مغرية بلا شك، وتهم الكثيرين.. لكني لا أضمن لك هذا.. يمكنني أن أؤكد أنني سأحاول جهدي..»

- «هذا ما أريده..»

نظر لساعته، وأعلن أن الوقت قد حان للذهاب للمطار، فناديت النادل كي أدفع الحساب.. قال (إيجور) وهو يخرج حافظته:

- «دعني أتول هذا.. ما دمت لم تشبع!»

أمسكت يده في صرامة:

- «أنا من محافظة تدعى (الشرقية).. ونحن لا نمزح في أمور كهذه.. ثم إنك

لست أمريكياً بالكامل ولا إنجليزياً.. أنت
بولندي أصيل!«
وأوصلته للمطار عاجزاً عن شكره بما
يكفي..
لن يعرف أبداً كم أفادني.....



الفصل الحادي عشر:

شديد الأهمية لهذا
أنصحك بقراءة ما
سبق لتفهمه..

بعد ثلاثة أيام:

جرس الهاتف يدق بلا انقطاع في داري،
ذلك الرنين الطويل الذي يشي بمكالمة غير
محليّة.. إن المكالمات المحليّة تجلب
الهموم، لكنّ غير المحليّة تحمل المصائب
دائمًا..

وهرعت إلى السماعه وقلبي يتواثب..
فسمعت من يتكلم بالإنجليزية.. ليس هذا

من (كفر بدر) طبعًا ما لم يكن اللورد
(كيلرن) قد تولى العُمدية هناك.. وأخيرًا
جاء صوت (إيجور):

- «د. (رفعت).. إنهم موافقون هاهنا!»

- «ماذا؟ وافقوا دون مشاكل؟»

- «كانت هناك مشاكل لكني ذلتها،

والدكتور (إيرهارت) مستعد لإجراء
الجراحة مجانًا في مستشفى ب
(منيسوتا)..»

- «حقًا لا أعرف ما أقول لك..»

- «أنت تعرف كيف تتصل بي.. عندما

تستعد الفتاتان سارسل لك بالتعليمات،

ولسوف تجد تذاكر السفر في مكتب القائم

بالأعمال..»

- «شكرًا يا (إيجور).. شكرًا!»

ووضعت سماعة الهاتف، وارتديت ثيابي
على عجل..



الأسرة كلها جالسة في قاعة الجلوس،
التي جعلها الازدحام كحافلة في ساعة
الذروة.. أمامي تجلس (نجلاء) منزوية
ترمق الأرض بلا انقطاع، وفي أريكة
واحدة يجلس الأب والأم لا يفهمان ما
يحدث، وجوارهما (محمد شاهين)..

أما (محمود) و(ناهد) - وقد جلس ابنيهما
على ركبتي أبيه - فيجلسان على مقعدين
متجاورين، وبطن (ناهد) المنتفخ يشي بأننا
اقتربنا جدًا..

نظرات الارتياح في شخصي المتواضع
لا تتوقف.. (كمال) يقف جوار النافذة
مستندًا بكوعه إلى إطارها، ويحاول الفرار
بعينه منها كي لا يرانا ولا نراه..

كان قدوم (كمال) هو أفضل ما استطعت
عمله، وبوساطة قوية من (مختار)
المحامي.. أنا لا أقنع أحدًا، لكنّ (مختار)
قوة كاسحة عاتية تجرف أمامها كل شيء،
ويستحيل معها أن تعلن رأيك الخاص..

كانت جلسة أمس مع (مختار) هي التي
نجحت في غسل مخ الفتى، ولم يكن شريرًا
ممعنًا في شره.. كان يحبّ (نجلاء) حقًا،
وتكفيه لمسة إصبع كي يعود لها طالبًا
الصفح، وردها إليه..

لقد أسعد هذا (نجلاء)، لكنّها أزمعت أن
تلعب لعبة الأنثى العتيدة، وتتظاهر بأن
الأمر غير ذي أهميّة لها.. إن الحياة ممكنة
من دون (كمال) كما هي ممكنة به..
كان هذا الموقف حين بدأت جلستنا هذه
في بيت الأسرة..



قلت لهم منتقيًا كلماتي:
- «كما ترون قد فرغ الدكتور
(تاركوفسكي) من إجراء اختباراتّه، وهو
يرى أن وضعنا ليس مستحيلًا.. إن
(نجلاء) و(ناهد) قابلتان للشفاء من هذا
الارتباط السخيف..»

هنا قال (محمود) متملماً:

- «لكنّ هذا الموضوع انتهى منذ زمن طويل..»

- «انتهى بالنسبة لزوجتك، لكنه قائم وبشكل شنيع بالنسبة لـ (نجلاء)، وما لم نفعل شيئاً ستظل تلعب دور مركز الآلام لأختها، وهذا ليس عدلاً على الإطلاق..»
- «والحل؟»

كان الأمر عسيراً بحق، ولقد أصررت على إقحام (كمال) لأجد في جانبه ما يعضدني.. إن ما أقوله سيفجر في وجهي غصبة عاتية..
قلت في تودة:

- «هناك جراحة.. وهي ليست بالضبط جراحة هينة، لكنّ نسبة نجاحها لا بأس

بها، وسيكون على الجراح أن يستأصل من
مخ (ناهد) ذلك الجزء المسئول عن تدفق
السيال الحيوي إلى أختها.. بعبارة أخرى
سنقوم بقطع سلك الهاتف بين الأختين..
«أعرف أنّ هذا عسير، لكنّ يطمئننا أن
الجراحة ستجري في مركز مختص بهذه
الأمر في (منيسوتا).. وستتحمل جامعة
(دوك) كافة نفقات الجراحة، فلن يكون
علينا سوى الذهاب إلى (أمريكا) برأس
(ناهد)!»

- «ونعود من دونه!»

قالها (محمود) في ضيق، وهو ما كنت
أتوقعه..

قلت له في كياسة:

- «لن يعود أحد دون رأس.. إن الجراحة النفسية علاج فعال معترف به، وما من حل آخر..»

- «نحن - ببساطة - نرفض هذا الحل..»
وبسماجة أضافت (ناهد):

- «ثم لا تنس أنني حامل في الأشهر الأخيرة.. بل الأيام الأخيرة..»

قلت وأنا أنظر إلى (نجلاء) الصموت:

- «ونحن سننتظر حتى تضعي حملك..
لن يجري أحد جراحة في المخ لحامل
متم..»

اتسعت عيناها في توحش، وقالت:

- «سأكون واضحة.. أنت تريد مني أن
أسلم رأسي لعلمائك المخبولين هؤلاء كي
يقطعوا جزءًا من مخي، وكل هذا على

أساس نظرية ذلك الأمريكي غريب
الأطوار.. والمطلوب علاجي من مرض لا
وجود له أصلاً..»

- «لكنه موجود بالفعل لدى (نجلاء)..
هذه هي المشكلة.. لو كنت أنت من تعانين
لبحثت بكل قواك عن مخرج.. أمّا والنار
في بيت الجيران فما دخلك أنت
بالموضوع؟»

قال (محمود) في كياسة، وبلهجة من
يهدئ الأمور:

- «دكتور (رفعت).. أنت أسديت لنا
خدمات كثيرة، وكنا صديقين لفترة لا بأس
بها.. لكني أراك تقول ما لا يصدقه عقل..
ومن جديد نحن نرفض هذا الاقتراح
السخيف..»

هنا قاطعته (ناهد) في عصبية، وبتوحش
متزايد قالت لي:

- «ليس هذا كل شيء.. يجب أن تكف
عن الإيقاع بيني وبين أختي.. كف عن
إشعارها بأنني أملك الحل ولا أريد تقديمه
لها.. كف عن وضعي في صورة
الأنانية...»

كانت قد تحولت الآن إلى نمر شرس
مخيف بحق، فلا يدنو منه إلا مجنون..
وكنت أنا هذا المجنون..

قلت في برود:

- «أنا لا أشعرها بشيء.. أنت بالفعل
تملكين الحل..»

نفخت غيظًا واحمرّ وجهها.. كانت من
النسوة المتبرجات اللواتي يزلن شعر

حواجبهن ليرسمن بدلاً منها خطأ بالقلم
الأسود، ولم يكن تأثير هذا - مع غضبها -
محبباً للنفس.. كان تأثيراً شبه شيطاني..
قالت:

- «حسن.. أنا أرفض حلك هذا وأريد
منك أن تخرس!»
كان وقع الكلمة عنيفاً، وشعرت بصفعة
معنوية على خدي.. فأنا لم أعتد الإهانة
قط.. وسمعت (محمد شاهين) يقطع
بلسانه معترضاً..
نظرت إلى (نجلاء)، وبصوت مشروخ
قليلاً سألتها:

- «(نجلاء).. لماذا تلزمين الصمت؟»
لم ترفع عينيها نحوي، وهمست:
- «وماذا أقول؟»

- «قولي رأيك!»

وقال (محمد شاهين) في لهفة:

- «(نجلاء).. هل أنت راضية؟»

بابتسامة جانبية مريرة، قالت:

- «أنا أجد الاقتراح غير منطقي، عسيرًا

أن أبتلعه.. ولو كنت مكان (ناهد) لما

قبلت!»

سرت تنهيدة ارتياح في جو الحجرة،

والتمعت ضحكة وحشية كريهة على وجه

(ناهد)، ثم قال (محمود) بتؤدة:

- «لقد سمعت ما قيل يا د. (رفعت)..

أعتقد أنه ما من أسئلة أخرى..»

ثم نهض في إيحاء ظاهرها اللطف

وباطنها الإهانة، وقال:

- «الآن نرجو عذرك لأن هناك أمورًا
عائلية خاصة ستتم مناقشتها، وهي ليست
مما يمكن قوله أمام الغرباء!»
كان هذا هو الطرد..

المعنى واضح إذن.. نحن جميعًا متفقون..
فمالك أنت بنا يا أحمق؟ أسرة سعيدة
متماسكة.. دون (رفعت إسماعيل)
و(إيجور) و(راين) وكل علماء (دوك)
المتطفلين..

ودون كلمة أخرى غادرت المكان.....



طبعًا لا داعي لذكر تفاصيل المرض الذي
ألم بي، والزمني الفراش لمدة أسبوع

بعدها..

لقد حار زملائي فيه، واعتقدوا أنها حمى
تيفودية أو.. أو.. لكني كنت أعرف
التشخيص الصحيح.. إن كبريائي وقد
جرح ينزف سموماً في دمي..

طبعاً لن أحكي هذه التفاصيل السخيفة،
فهى شيء معروف..

فقط أقول إنني قلت لنفسي: هذا هو
جزاؤك الحق.. لماذا تتدخل فيما لا يعنيك
وتسدي العون لمن لم يطلبه؟ أطلب مزيداً
من الحكمة والعلم؟ ما جدوى الحكمة
والعلم اللذين يسببان طردك بهذه الطريقة؟
أسبوع مرّ عليّ في الشقاء.. لكني في
نهايته كنت قد غدوت شخصاً آخر..
شخصاً لا يبالي بالآخرين..

والمؤسف أنني كنت بهذا سعيدًا راضيًا..



وبعد أسبوعين من تلك الجلسة الدامية
قُتلت (ناهد)..

كان هذا في السابعة مساءً، وقد انتهت
إجازة زوجها، لذا كانت تعد كل شيء
للسفر في الغد إلى (أسوان).

أخبرني د. (محمد شاهين) وهو يبكي أن
(محمود) و(ناهد) وطفلهما نزلوا إلى
الشارع للتسوق..

وكان الشارع التجاري مزدحمًا يغمص
بالناس، و(ناهد) تمشي وراء زوجها في
حذر كي لا يصطدم أحد ببطنها الكبير...

هنا برز رجل من وسط الزحام، وقبل أن يفهم أحد ما حدث غرس سكينًا في عنقها، وهو يصرخ:

- «من أجل (صلاح)!!»

والتفت الزوج إلى الورااء ليرى المشهد الدامي، وفي اللحظة ذاتها كان المعتدي - ملوحًا بسكينه - يحاول أن يشق الزحام مبتعدًا.. أجفل بعض المارة وابتعدوا.. لكن اثنين من أولاد البلد (الفتوات) استطاعا أن يجندلا المعتدي أرضًا ويصرعاه، وكان هناك ملازم شرطة شاب في ثياب مدنية، وثب على المعتدي وانتزع السكين من يده، وألصق بجهته طبنجته الحكومية..

لقد تم القبض على الفاعل - الذي هو (ماهر) طبعًا - لكن بعد ما حدث الضرر

المطلوب..

ها هي ذي (ناهد) ترقد على الرصيف،
في بركة من دمها، مفتوحة العينين
شاخصة للسماء، والزوج يحاول ذاهلاً أن
يعرف موضع الخلل الذي انتزع الحياة من
هذا الجسد..

- «إسعاف! إسعاف!»

طلبها، وطلبها بعض الواقفين، لكنّ -
بالنسبة لأكثرهم - كان الأمر واضحاً
تماماً.. لقد ماتت المرأة على الفور.....
لقد انتظر (ماهر) اللحظة المناسبة طويلاً
جداً، وكان ينوي قتل الزوج لكنه عدل عن
ذلك، ف (ناهد) ضحية مفضلة لأنها تعذب
الزوج للأبد، ثم إنها الحب القاسي الذي
تخلي عن أخيه..

وها هو ذا يفعلها في أبعد اللحظات عن
توقع شيء كهذا..



أخبرني (محمد شاهين) بهذا هاتفياً، وهو
لا يكف عن البكاء؛ فسألته:

- «والجنين؟»

- «بالطبع مات بدوره.. ماذا تريد؟»
هنا تذكرت.. ثمّة مأساة أخرى أكثر
أهميّة:

- «وماذا عن (نجلاء)؟!»

- «لم تعرف بعد.. إنها مع زوجها في
(الإسكندرية) ولا نعرف كيف نتصل
بها!»

- «يا حمقى!»

كانت المأساة قد وقعت في السابعة مساءً،
وأخبرني (محمد شاهين) بها في الثالثة بعد
منتصف الليل..



والتفت الزوج إلى الوراء ليرى المشهد الدامي ، وفي اللحظة
ذاتها كان المعتدى - ملوحًا بسكينه - يحاول أن يشق الزحام مبتعدًا ..

لقد سافرت (نجلاء) مع زوجها إلى
(الإسكندرية) على سبيل شهر عسل ثان،
وكي تهدئ أعصابها بعد كل ما كان من
توترات.. ولكن يا له من وقت! يا له من
وقت!

سألته في حلق:

- «وهل تعرفون أين تقيم؟»

- «عند أخت (كمال) في (العصافرة)..

لماذا تسأل؟»

- «وتعرف عنوانها؟»

- «ربما أجده عند أم (كمال).. ولكن

لماذا تسأل؟»

- «لأنك أحمق! يجب أن نسرع حالاً إلى

(الإسكندرية)، فلو صح توقعي، أعتقد أن

الأستاذ (عبد الجواد خليفة) قد فقد ابنتين لا
واحدة!»

قال لي ذلك الجانب الطفولي من عقلي
الباطن..

- «ألم تقسم على عدم التدخل في شئون
أسرة المتاعب هذه؟»

فيقول له الجانب الناضج من عقلي:
- «ثمّة أشياء أهم من الكبرياء، وأمور لا
يمكن التردد فيها أساسًا..»

وهكذا - أنتم تعرفونني - رحت أشق
الطريق الزراعي بسيارتي، جوار (محمد
شاهين) الذي أنساه الذعر حزنه، وراح
يردد الأدعية كي لا تتقلب السيارة..

كان الظلام دامسًا وثمّة (شبورة) لا بأس
بها، في هذه الساعات الأولى من اليوم..

وشعرت كأنني أشق طريقى وسط سحابة،
أو وسط غابة من القطن الأبيض..
لم أخف لأنني كنت منهمكًا في توجيه
اللوم والسباب لمرافقي:
- «يا حمقى! يا أغبى الناس طرًا! لقد كان
يوم عرفتكم يومًا لم تشرق له شمس..
والأسوأ منه يوم جعلتك تدخل داري في
البداية!»
فكان يرتجف وينصحني بأن أهدأ كي لا
نموت..



وبعد مائة دقيقة لا أكثر كنت أشق شوارع
المدينة النائمة، مسترشدًا بوصفه.

أخيرًا وصلنا للبناية المتواضعة في
الشارع الذي أغرقه الضباب.. ثمة كلب
ينبح في مكان ما، وكلب يرد عليه..
البرد.. الصمت..

قلت لـ (محمد شاهين) وأنا أطفئ
المحرك:

- «لا أرى آثار موت.. لكنّ اصعد
لترى..»

- «بل تجيء معي..»

وترجلنا، ورحنا نرمق الكائن المظلم
المغلق على أسرارهِ..

- «هذا هو العنوان لا شك في هذا..»

وفي ببطء صعدنا الدرجات المظلمة.. كل
شيء يذكرني ببيت (شبرا) كأن (نجلاء) -

حتى حين تنتزه - لا تختار سوى ما يشبه
بينتها الأصلية..

وعند الطابق الثاني والأخير قرع (محمد
شاهين) الجرس طويلاً..

ونظرت لساعتي: السادسة صباحاً تقريباً،
ولما تشرق الشمس بعد.. وزوار الفجر
يلهثون بانتظار فتح الباب..

صوت المزلاج.. سؤال فظ عن الطارق..
الشراعة تنفتح..

ضوء السلم يضاء ليغمرنا بالنور...
رجل فظ الملامح خشنها بطاقة النوم
يرمقنا في ذهول غاضب..

ومن خلف ظهره لمحت وجه (كمال)
المتسائل المندهش..

وبعد دقيقة برز في مجال الرؤية ما كنت
أبحث عنه...

(نجلاء)...

كانت سليمة معافاة لو تجاوزنا عن
المنديل المربوط حول عنقها..



الخاتمة

عزيزي (إيجور):

..... وكما ترى من رسالتي
الطويلة، كانت هذه خاتمة الأحداث الدامية
والمؤسفة التي عصفت بهذه الأسرة..
أما تفسيري لما حدث، فهو أن موت
(ناهد) قطع الرابطة ما بين التوءمين،
وتحررت (نجلاء) أخيراً..
لقد كان جل ما شعرت به هو ألم حاد في
العنق، وبحة في صوتها، حتى إنها
اضطرت إلى ربط عنقها.. لكنّها ظلت
حية..

هذه هي الإجابة عن سؤالنا عما كان
سيصيب إحدى الأختين لو ماتت الأخرى..
لقد تم استئصال الجزء النشط من عقل
(ناهد) بطريقة جذرية للغاية، وإن كنت لا
أشعر بأسف كثير لهذا.. لقد استحققت
(نجلاء) حريتها، وإنني لواجد عدالة
شعرية لا بأس فيما حدث..
هلكت الفتاة السيئة، وعاشت الطيبة سليمة
معاواة..

وإنني لأرى بعين الخيال..
أرى (نجلاء) و(كمال) يظفران بسعادة
استحقاها ولم يظفرا بها قط..
أرى طفلتهما الجميلة الطبيعية تمرح
بينهما..

أرى ابن (ناهد) يترعرع في دار خالته
طيبة القلب، دون أن يشعر لحظة بالحرمان
من أمّه...

أرى (محمود) وقد عاد وحده إلى
(أسوان) يمارس حياته بلا مخاوف..
ولسوف ينسى.. حتمًا سينسى..

أرى (نجلاء) - بعد عمر طويل وشيب
كثير - تلفظ أنفاسها الأخيرة، لتلحق بـ
(ناهد) في العالم الآخر، وأعرف مطمئنًا
أنه - للمرة الأولى - لن تتعذب واحدة منهما
بدلًا من الأخرى، لأنه عالم عادل تسوده
الرحمة الإلهية..



انتهت قصة التوءمين..
وحق لي أن أظفر ببعض الراحة..
لكنني - في ملاحقتي للغرائب - شبيه
بالنشال الذي لا يتوب أبدًا، مهما أمسكت
به الشرطة، ومهما تلقى على قفاه من
صفعات في الحافلات..
لهذا كانت هناك حلقة رعب..
وهذه الحلقة.. كانت تدور حول موضوع
محبب: الرعب خلف باب مُغلق...
كانت هناك قصص عديدة، لكنّ أفضلها
كان.....
ولكن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة
العربية

الحديثة

٨ و ١٠ شارع ٤٧

المنطقة الصناعية

بالعباسية

القاهرة ت:

- ٢٨٢٣٧٩٢

٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

الفصل الأول:

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

الفصل العاشر:

الفصل الحادي عشر:

الخاتمة

ما وراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من قرط القموض والربص والإثارة

روايات مصرية الجيب

أسطورة التوءمين

كان الضباب الفوسفوري
الرقراق يتسلل كال دخان في فضاء
الغرفة ، منبعثًا من رأس (ناهد) ،
ليلتف ببطء حول رأسي ورأس
(نجلاء) .. ونظرت مستغيثًا إلى
(إيجور) لكنه - لحسن الحظ - لم
يبدُ مذهولاً .. كان يعرف ما
عليه أن يتوقعه...



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:
وراء الباب المُغلق

المؤسسة العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٢٥٥٥١ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الشمس في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

رمبرانت فان راين: فنان هولندي عظيم، هو رائد ما
أسموه بـ (القرن الفلامنكي) في الرسم.. وله لوحة
شهيرة جدًا هي (الحارس الليلي).

[←2]

لفظة هستيريا مشتقة من لفظة (رحم) اللاتينية،
وكانوا - قديمًا - يحسبون المرض مقصورًا تمامًا
على النساء، واعتقدوا أن الرحم سببه.. طبعًا لم يعد
هذا الكلام دقيقًا..

[←3]

شخصيّة حقيقيّة.. والتواريخ كذلك.

[←4]

طارد الأرواح الشريرة: رواية رهيبة للأديب
الأمريكي لبناني الأصل (وليام بيتر بلاتي)، وقد
قدمت في فيلم أحدث ضجة (لم يعرض في مصر).